رواية

فراسخ الخلود غرباً
إلى وادي قره صو

سليم بركات

الفرسخ الأول
(تُرجمان الحِيْلة)

هواءٌ من نَفَس الليل مسَّ شعلة السراج فوق المسطبة الحجرية، فتماوج ظلُّ القلم ذي النصل النحاس فوق السطور السود، الممتدة من فراغ الشهوات البيضاء إلى فراغ الشهوات البيضاء. تعلقت المعاني عناقيد ناضجة بسهم الظلِّ، قبل أن يرفع دلْشَادْ شَاهْنُور يده عن الورقة المختمرة بخيال صناعتها من عجين الذُّرة. نظر إلى السراج، ثم إلَى الباب المطعَّم بخمس مرايا دائرية صغيرة من الداخل، ثم إلى النافذة الموصدة بعلوم أسرارها خلف ستارة القماش الكيطلادي الأصفر من نَسْج عذراوات جزائر إيجة: لا منافذ ليعبر الهواءُ المرصَّع بخرز الفرات البارد. إنها الشعلة، إذاً، تدور على أقفال الليل بمفاتيح الضرورات المُحتبسة في دورة النُّور – الدورة الموعودة بأهرامات من الحقائق التي تتأفَّف، أبداً، على مسمع الله، من كونها حقائق حتى الندم.

خاطب دلشاد الشعلة بلسان الطبائع الصامتة. وَعَدَها بزيت من كُلْية السَّمور يبتهج بنَفْحِه

ثلاثة فصول قصيرة من رواية في ثمانية، بالعنوان ذاته.

سليم بركات، شاعر وروائي سوري مقيم في ستوكهولم.

E-Pirtûk www.kurdme.com
www.all-kurd.com
www.kurdefrin.com

المحرورون، فهدأت اللّجْلجةُ في كلام النار المهذبة كنصلٍ ذهبٍ. عاد دلشاد إلى سطوره المنتفخة من كَرَم الحبر. عاين التوافق بين مراتب الشكل والغواية في ما يلي الشكلَ الحافظَ لجلال الصور. قلَّب المعاني وطابقها أنفاساً، وحدوداً، ونواقصَ، كي يُصْلح بين المتنافرات ويؤانس بين المُتحاذر: كان يدقق، بالتناوب، في السطور التي يكتبها وفي سطور الكتاب المفتوح أمامه، كأنه يستنسخ الحركة الأبدية لأفلاكٍ المتشابه المتنافر.

قرأ لنفسه، بصوتٍ عال، سطوراً بالسريانية في الكتاب المفتوح، ثم قرأ لنفسه، بصوت خفيض، سطوراً دوَّنها على ورق عجين الذُّرة بالكردية. تنفَّس ملء رئتيه المتصلتين برئتي النشآت المكتملة في رماد الجوهر الدفين، والتفت إلى المرأة المستندة برأسها إلى كتفه اليسرى، من خلفه، كأنما تنصت إلى الأرق القديم في عضلة اللحم الشاهدة، منذ التدبير الأول لمتاهة العلوم، على أن الأعضاء اليسرى، في الإنسان، والحدود اليسرى في الكون القائم وجوداً أجساماً ومعاني، هي أقل شرفاً من اليمنى: «لماذا فضَّل الله هذه الجهة على هذه، يا دلشاد؟»، قالت أكيْسَا وقد نقرت بإصبع يدها على جهتي ظهره. استدار دلشاد إليها في جلسته فوق البَلاس المنسوج من شعر أراويِّ جبل الكرد، الرطبة اللحوم من هبوب هواء بحر اسكندرونة الكسول. نظر في عينيها الطافيتين على غمر قلبه، وقبّلها من فمها الشارد قبلة الممتنِّ للإثم الطاهر، فاستعاد فمها صوابه. تقلَّبت الحقائقُ مبتلةً تحت لسانيهما المتمرغين أحدهما في لوعة الآخر. انفصلا في الحيِّز الملتحم – حيِّز عناقيهما. «بقي القليل من هذا الكتاب. ستنتهي الترجمة»، قال دلشاد، فارتعدت عضلةُ الوقت في ثدي أكيسا الأيسر. أطبقت راحة يدها على عضده منذعرةً من فجاءة التصريح الصلب كغدرٍ. «لم تخبرني من قبل»، قالت بلسان الحيلة المُعطَّلة.

«أخبرتك مرتين»، قال دلشاد المُعلَّق من خياله إلى خيالها.

«نسيتُ»، ردت مويخةً، بانكسار المُحاصَر، نَفْسَها المنشغلة عن أحوال الوقت. تداركَتِ الفراغَ العاقل، المنصت إلى انعتاق هواجسها من قيد النسيان: «ماذا نفعل إذا أنهيتَ الترجمة؟».

تراخى دلشاد. تراخى عصبُ الحيلة فيه: لماذا غفل عن إيقاظ نفسه، ذاتها، على صليل الوقت الذي بدأ يتقاصر من مهلة الترجمة؟ سنة وثمانية شهور. السطور السريانية في مخطوط «المُختَصَر في حساب المجهول»، المنسوخ بحبر من سُخام شجر الخوخ ودم ضفدع الرمل المسموم بلدغ العقرب، تتراجع أمام نَسْخها بالسطور الكردية. المعاني تتصافح وتتعانق. والرغيف، الذي عجنه دلشاد بيد الماهية الصغرى للضرورات، ينضج على نار اللغتين الموقدة من حطب المسكون الأليف: لقد سلَّم الزمنُ جرابَ نقوده من شرفة السريانية إلى العدَّاء في خيال الترجمان. «أخبرتكِ مرتين يا لسانَ لوعتي – أكيسا. ستنتهي الترجمة. ماذا نفعل إذا أنهيتُ الترجمة؟»، قال مُعْتَصراً من رئتيْ وجدانه.

في بلدة كوماجينا المنتصبة على هضبة من رمل ما بعد الطوفان الثالث – طوفان الخسف الذي أصاب وادي قَرَهْ صُو، شرق الفرات الأعلى، نحر دلشاد شاهنور ثلاثة ديكة نقية الخُصى، لم تسافد دجاجاً بعد، على باب مكتبتها المشهود لها، في ميزان المتخاطبين بلسان البرزخ، أنها

عقل بستة آلاف عين هي مخطوطاتها المنظورة، وتقابلها ستة آلاف عين أخرى هي نظائرُها الحرَّةُ من العلوم المستورة. وقد خُلِعَ بابها الخشب المزين بتعاريق الحديد وفق الخيال البيزنطي، ونُصب عليها بابٌ آخر من الإرث السابح على نداء الكمال – نداء العصمة الإسلامية، منذ تخلى سينودس خلقيدونية عنها لعجزه عن تدبير القائمين على شؤون النداء الإرثوذوكسي. بقايا سينودس خلقيدونية؛ ممثلون عنه؛ بعض المنتظرين نهاية التكليف كي يعودوا من أرض قسطنطينوبل المفقودة إلى ما وراء سور البحر، هم الذين رهنوا المكتبة إلى سراي بلدة كوماجينا. نقلوا مخطوطات اللاهوت الستة آلاف إلى دير ساموتراكي، على مداخل بحر مرمرة، وأبقوا المخطوطات الأخرى، المشرفة من حبرها على علوم المجاهل الأرضية، وغرائب العقل التائه في أمور التاريخ ومصادفات العلل. نامت المكتبةُ على رمل حقائقها المدوَّنة بالأخبار الجسورة، والمملولة، والنبيهة، والساهمة، والمُلْغِزة، والأليفة، والغريبة، ستَّ سنين. تعاقبت ثلاثة أجيال من سحالي الصخور الرملية على خيالِ صمتها، وهي تدوِّن، بألسنتها الدبقة الطويلة، أحاديثَ الوقت المتأفِّف من شقاء الإرث الزمنيِّ، على أغلفة مخطوطاتها الخشنة، المصنوعة من رُقعٍ جلْدٍ، حتى اليوم الذي انقلبت فيه مجازاتُ الصمت إلى غزوات للصوت من مكنسة العرْفَج الموصولةً بقضيب طويل من الخيزران: «أيُّ عقل أنتنَّ، يا براهين الغبار؟»، قال جرْجُو للسحالي، وهو يمشط سطورهن على الجدران فيتساقطن على الكتب، وعلى الأرض ممزَّقاتٍ في جلودهن الرقيقة. جرجو نيقو قاديشا – الشيخ الأعجف، حملتْهُ رحلةُ النقائض في أرض الأناضول إلى كوماجينا. سريانيٌّ نصبتهُ مجامع الكنائس الصغيرة، في قرى إقليم أنطاكية، كشافاً باسم الدورة الألفية للأسرار المنظومة في أشكال الحروف البيزنطية، يتحرى التوريات الحيَلَ، ويفكُّ الكيفيات المموَّهة في صناعة أخبار الكميات عند رهبان نهر كوروتاس، المولعين باستنباط الألغاز من علوم «روح القدس». حمل ورقة عليها ثلاثة عشر ختماً إلى الباشا الشارد العينين في السراي، فلم يقرأها الباشا. وضعها على منضدته وساءله: «ما تريد؟»، فقال: «المكتبة، يا سعيد الشأن. أنا سرياني لا تفوتني ألاعيب الإغريق». هشَّ له الرجل ذو الإصبعين السبابة والوسطى المصفرَّتين من لفافات التبغ: «المكتبة في إدارتك. حبذا لو أضفت إلى مخطوطاتها سيرة السيدة غولبَدَنْ بَيغُم، ابنة الإمبراطور بابر. لها سطور عن أجدادي»، قال، فهزَّ جرجو رأسه منتشياً من غمامة الفوز: «سأضيف إلى المكتبة سيرة أبيها أيضاً، لو شئتَ، وسيرة أختها وأخيها»، فابتسم الباشا ثانيةً. أومأ إليه أن يجلس على كرسي فجلس الشيخ الأعجف، المعتمر طربوشاً يحفظ للعقل فراغهُ الدافئ. «إلهام صوناي، أختي، عندها أشعار في أصناف الفراشات. لو تستنسخ منها أربع نسخ للمكتبة باسم لامليْنْ هانم. نعم. لاملين هانم أفضل من إلهام صوناي».

نحر دلشاد شاهنور ثلاثة ديكة على باب المكتبة. وضع قدمه اليسرى على جناحَيْ كل ديك وحزَّ بمديته قصبات الهواء المذعور. نطقت قلوبُها بأسرار المتعيِّنِ الصريح المُشكل، وتلاسن الريشُ بكلمات الأفعال اللازمنية: «هذه هبةُ خيالي لك يا سيد قاديشا. أنا حيوان أعجم من صنف الطير الذي لا يطير، فاجْعَلْني ناطقاً»، قال الرجل الذي يرتدي قفطاناً أصفر فوق بنطال أسود، ويعتمر

غطاءً أسود أيضاً، من نَسْج إقليم ميرسيْن، يحيط به طوق مجدول من الحرير خالطتهُ شرائط ذهبية، فرد جرجو: «قبلتُ هبتك، يا ابن الأصل الناطق»، قالها بكردية أهل الجبل.

ثلاثة ديكة، بأرواح ترفرف في الأرجاء اللامسكونة من خيال الوجود المسكون، كانت صلة لسانه الكردي باللسان السرياني، تحت رقابة جرجو نيقو قاديشا المتساهلة. حملها دلشاد معه، حيّةً في قفص من غصون الكينا – شجرة البراعات الناقصة، وقد طُليت قضبانها بالأصفر والأخضر لونَيْ الرِّقية الخفية لجبْهِ داهية العين. كلَّمها، بلسان خياله الذي يتذوق طلْعَ نبات العرفج، عن سُنن العلوم التي تتفتق كبزر اليقطين بين أسنان الترجمة: «المعاني شطرنج، وزَّع التدبيرُ المُحيِّرُ كلّ حجر من حجارتها على لغة». سمَّى كل ديك باسم سهل من سهول كركميش بين الفرات الغربي وجبل الكرد: «فلتكن أرواحكن الناجية من أي مؤاخذة في السماء ميزان روحي في تقدير الهبات بلا خوف. أنا ذاهب إلى السيد قاديشا كي أستنسخ أثرَ المفقود الأزلي». ولمّا بلغ عتبة المكتبة أنزل القفص عن ظهر بغله. نادى الشيخَ الأعجف بلقب الكياسة والفضل من وراء خشب الباب ذي الوشم النافر بالحرف العربي في صورة «القلم»، فخرج إليه جرجو حاسرَ الرأس. نُحِرَت الديكة تحت بصريهما المتوافقين في رسْم امتنانيهما. وطَّد الدمُ تكليف العقل بلا حدود.

«ماذا ألهمك، يا دلشاد، أن تقصدني لتتعلم السريانية؟». ساءله الشيخ الأعجف، المُمْتَحنُ بعلوم الحروف والأنساق، فردَّ الرجل المُقبل على تحصين خياله الناطق باللغات: «المعذرة، يا سيد قاديشا، لو ساءلتك لماذا تعلمتَ التركية، والكردية، والعربية، والفارسية، واليونانية؟». حسر الشيخُ عن رأسه الطربوشَ الذي لم يتوارثه عن الأسلاف. أبقى يده على النَّسج القُمعيِّ الأحمر: «أحببتُ تقبيل الدنيا بأكثر من فم». تنفّس دلشاد التورية بحياء المُعْجب، فتداركه الشيخُ ممازحاً: «تصور لو أن لك خمسة، أو ستة من هذه»، وأشار إلى ملتقى فخذيه، فاضطرب دلشاد خجلاً. ضحك جرجو، وألقى عليه ثلاثة أبيات من الشعر السرياني اختصَّ فيها القافُ المكتنز كخنوص راكض. «لن أترجمها لك»، قال. «لا أريد لكَمرتك أن تنخسف إلى باطن صَفنِك».

ثلاثة آلاف بيت من الشعر المكنون في رطانة السحر أُلقيتْ على مسمع دلشاد، في إقامته سنةً تحت سحاب الأزل السرياني، يتلقى من جرجو أنباءَ حروب المعاني، وحصار التوريات للتوريات، وأحابيل الحروف، وتواريخ الخطط المجازية لتوليد الأشكال المنطوقة من خيال السكون المنطوق، وتراشق الإعراب بأقدار العقل، وهزائم المفردات أو غدر بعضها ببعض. حمل جرجو قلب دلشاد إلى عاصفة وحدته شيخاً أعزبَ بلا نسل يريد أن يُنجب فيه – في قلب دلشاد – سيرة طالما أرادها بلا بداية؛ بلا نهاية: «ولدتُ في كتاب عن تاريخ الماء. لا أتذكر نفسي إلا ماءً. ليس لي لحم أو عظم بعد. عليَّ جلد يحيط بسحاب كثيف. وأنا، كلما أتقنت لغة جديدة، عدتُ إلى هيئتي الأكثر انحلالاً؛ إلى هيئتي الخفيفة في كتلة الظل الرطب. سترافقني يا دلشاد في عودتي بك إلى خوفي الأول من أن أدخل متاهة الحروف فلا أرجع قط». ابتسمَ: «من يدري؟ لعلّني لم أرجع قط»، قال متردداً في النظر إلى خرزة يقينه.

الريحُ الرسولةُ دحرجت على لسان دلشاد بزرة المجهول الشبيهة بحَبِّ الكزبرة. سال لعابه من

طهو النطق التركي فتردد على التكية النقشبندية في بلدة نزيب، حتى حشد لنفسه، وهو يافع، سلالَ البذور النقية في خيال الكلمات. حفظ أربعة آلاف بيت وبيتين من أشعار المثنويين، الهائمين بسُبُحات الغروب الأعظم في الخلجان الجافة من بحر الأناضول المفقود. طلب قلبهُ الاستزادة فأوفده أبوه سينو شاهنور إلى أخواله من آل همَّت الدين في حلب. جمع هناك اللغة العربية من كتاتيب الوراقين. عاد إلى بلدته سياسيل المَرفوعة على جُرفٍ من بقايا الطوفان الثالث، ليوثّق العقدَ الذي نَظَمه بأشعار الهواء في حنجرة الفرات الأعلى. قسَّم خياله، بالتساوي، على لغته الكردية، واللغة التركية، واللغة العربية، حتى غدا، وهو في مطلع شبابه بَعْدُ، إمامَ الملتمسين شفاعة تحرير العرائض إلى الوُلاة، وتسطير المآثر السَّنية للأنساب، وتجريد المطالع الأكثر مبالغة للرسائل المحمولة في سروج السعاة إلى محطات القطار بين أورفه وأنطاكية.

ظلَّ قَدَرُ لسانه واضحَ التدبير، يهيئ له في دُوْر السرايا، من أرض اسكندرونة وأضنة، تكليفاً مدفوع الأجر بالليرة العثمانية، عن تدوينه لنقل المُلْكيات، وتصريف شؤون المواريث في الأضابير المطوَّقة بخيوط القنب، حتى اليوم الذي أتاه رسول من الأمير مهران إيڤاردَرْ، سليل تاريخ يهتدي معصوب العينين إلى تزويد الأنساب بكمالها. جمع دلشاد قلبَهُ المُثارَ وعدَّةً من حوائجه في صرّتين على ظهر بغل، ثم تتبَّع الرسولَ إلى بلدة كَلاس، بين كركميش على الفرات وجبل الكرد. رمى حجرَ القراءات التسع من خياله على زرابية الغيب المزوَّقة يَسقْطُ غاية الأمير من الإيفاد في طلبه. قلَّب خريفَ الحقول ورقة ورقة على ضفاف الجداول الثمانية والثمانين في مسالك السفوح الجنوبية لهضاب الشرق المُعشبة: «ما الذي قادك إليَّ، يا سيد إيڤاردر؟». ذلك ما كان مكتوباً على لوح الحظوظ الموزّعة على خياله بميزان اللاتعريف. ولما صافح دلشاد الرجلَ الشيخَ، ذا الحقائق المحزومة حول خصر قفطانه كلقبه الأميري، بدت المسألة صغيرة كسفاد العصفور: «لَقَتَ عقلي خبرُك في شؤون اللغات».

سمع دلشادُ الكلمات عاديةً، مقرونة بالحاصل الذي جمعهُ بدأبه في اقتياد الخيال المتعدِّد للكلمة الواحدة إلى مآدب الألسن. لكن مهران فاجأه قليلاً بسؤال لم يتحوَّط له: «لماذا لا تتعلَّم السريانية، يا دلشاد؟». ترقرق الصوتُ كثيفاً إلى سمعه. «السريانية؟»، ردّ دلشاد بحروف تتمطَّى، «ماذا أفعل باللغة السريانية، يا سيد إيڤاردر؟».

«في كوماجينا مَنْ يعلِّمك السريانية. آمِرُ مكتبتها جرجو»، قال مهران.

«ولماذا أتعلَّم السريانية؟»، عاد دلشاد إلى سؤاله بصوت شرَّده تدبيرُ جواب مّا.

«عندي لك ما تختبر به يقينَ لسانك»، قال مهران.

«أتعني أن أترجم عن السريانية؟»، ساءله دلشاد.

«نعم»، ردَّ مهران.

أرخى دلشاد عنقه على وسادة الهواء الخفية. تلمَّس ببصره إشارةَ العقل المتعرِّق من أحمال المخاطبات الصغيرة بينه وبين مهران:

ـ لماذا لا تعهد بالترجمة إلى ذلك السيد ـ آمِرِ مكتبة كوماجينا؟

«أريد كردياً يعيد المعاني تائهةً مثله»، قال مهران. عاين دلشاد غمامةَ المرح في عيني الرجل المحتفظ في خزانة نَسَبه بلقبٍ جرى إلى وريده من سلالة ناصر الدين محمد بن شهاب الدين، الأيوبي، الذي بسط التاريخُ الثناءَ الأزرقَ عليه في مَيّا فارقين ـ قاعدة بلاد ديارْ بَكِرْ. تنفَّست القرونُ على وجه دلشاد فاستنشق دلشاد الخمائرَ المُبْتَكَرَةَ بنقائض المعقول:

ـ الترجمة مطابَقةٌ بين المعاني. أثرٌ على مقاس الأثر، يا سيد إيڤاردر. وأنا لست تائهاً، في الأرجح. قد أخذُلك.

«لن تخذلني»، قال مهران. «كل كردي موعود، في قِسْمة من حياته، بجهة تائهة». ولمس كتفَ حامل اللغات. «انظرْ حولك»، أضاف، فنظر دلشاد من حوله مُخْتَطَفاً من صحوته الشفيفة إلى اللغز الشفيف في توريات مهران.

«ماذا ترى؟»، ساءله الشيخ الخارج من خزانة لقبه الأزرق، فرد دلشاد:

ـ أرى بيتك الكريم.

«أنت ترى ما لا أراه، يا دلشاد»، قال مهران.

قيَّد دلشاد ميزانَ الأحكام الذهبيَّ بقيد شروده في لسان الشيخ، المتأدِّب على فطنة التاريخ ذي الخزائن المُقفلة. تأرجح خيالُه خفيفاً في نعاس التقدير: «من أين تريدني أن أبدأ، يا سيد إيڤاردر؟»، قال، فردَّ حاملُ اللقب الأزرق: «نبدأ، أنا وأنت، من السريانية. تعال. اجلسْ إلى جواري هنا، على أريكة السيدة شَهْنَاز أرطغرل شاه. كُرديَّة توضأت بدم حمام الزَّاجل كي يرجع بعلها التركماني إليها مهما كثرت أسلابه من نساء التتار، لكنه هجرها، فسلختـه بعد خنقه، وكستْ عيني الفهد المنجور على خشب عارضة هذه الأريكة بجلد صَفَنه». أمسكَ بسبابة دلشاد وتقرَّى بها بؤبؤي الحيوان النافرين. سحب دلشاد يده، في حياء ونفور معاً: تسربت إلى إصبعه ليونةٌ وخزتْ خيالَه.

في ميناء اسكندرونة تفتقت بزرةُ النداء السرياني في القطاع الثامن من عقل مهران. سقطت البزرةُ عليه من أرقام الحساب المتطايرة من دفاتر جباة المكوس. كان حاملُ اللقب الأزرق يستخلص عربةً من التي تجرُّها الجياد، صُنعت في سردينيا من ائتلاف النحاس المُعتلِّ من رفاهية الفلزِّ الخالص، وخشب القيقب المعذَّب بكمال النار. مسَّ جلدَ المقعد الأحمر، والبطانة المخملَ للقبَّة التي تطوى من مفاصلها الأقواس المخططة بأزرارٍ ذهبٍ تعكس السماءَ مدوَّرةً في شرودها. «عوفيتم»، قال للعمال التسعة، الذين حملوها إلى ظهر محفَّة كي لا تمسَّ عجلتاها الأرض، في طريقهم من زحام الميناء إلى قطار ملاطيَة. تنفَّس الهواءُ. كُتبَ ما يستذكرُهُ الغيبُ من لوحه المرئيِّ فقرأ مهران سطرَ امتنانه للحظوظ الساهرة عليه من قلَك إرثه. دفع لجباة المكوس ورقاً عريضاً نقلتْهُ صناعةُ النقوش والرسوم من مرتبة النشارة الخشبية إلى مقام المعدن النفيس. عدَّ الجباةُ الورقَ النقد بالحاصل الذي يحوِّل اللون بين رسم وآخر إلى كمٍّ من الماهيات الجليلة كوجوه السلالة العثمانية، المتطلعة بعيون لا تخطئ إلى المجهول المروَّض في أقفاص الأقاليم. بلغ الصدى السرياني لألسنة الجُباة، وهي تحصي الأعشار حشداً حشداً، مسمعَ مهران: أرقامٌ غِزلانٌ تقافزت من العِلْم المستور

إلى الغيب المكشوف. «لماذا تعدُّون بالسريانية؟»، ساءلهم حامل اللقب الأزرق، فردَّ عريفُ الكشوف المكوَّمة في فوضى أيامها، والسجلات المقيَّدة بسلاسل من ذهول اللامرئيِّ: «الرقم وحشي، نَفُورٌ وحَذِر، لكنه يأنس إلى مناداته بأسماء الصِّور»، قال بلسانٍ تركيٍّ.

الرقم حيلةُ اللاتقييد في علوم المحسوس؛ وواسطتهُ إلى عِلْمه بذاته هي لَفظُ الإطلاق بلا عمقٍ، أو بُعْدٍ، فكيف قيَّده عريفُ المكوس السريانيُّ بقيد الهيئة، واللون، والحركة، التي هي منزلةُ الصِّور في خيال العين وخيال العقل؟ الرقم حدٌّ وحيِّز؛ حَصْرٌ، وضَبْط، ومراوغةُ فكرٍ لاستدراج الكليِّ إلى مُتَعيِّنٍ أسماءٍ هي كنايةُ غيابه: تجريد الرقم بلا أمل في شكل، أو لون، أو أثرٍ من آثار الماهية، كأنه غيبوبةٌ تُكَنَّى بها مَلَكاتُ اليقظة، فيستعير منها الإنسيون حقائقَ الكمِّ الموقوفة على أشياء العالَم وأشياء العقل. فكيف خرجت اللغةُ السريانية على ناموس البزرة التي أنجبت خيالاً على هيئة اللاخيال؛ البزرةِ المتجرِّدة من غذاءِ الأبعاد الثمانية ـ أبعاد الجسم ولوازمه الحُرَّة الناطقة، والصامتة؟ للرقم أسماء الصور. هذا ما فهمه حامل اللقب الأزرق من عريف المكوس على باب البحر الأشعث من كثرة لهوه بالأرخبيلات المسكونة. السريانية!! ها؟. لغة التحقيق في علوم المُهْمَل ـ يقول المُنَزِّهون خواصَّ المُسْتَغْلَقات، وذلك، تحديداً، ما طرب له القطاعُ الثامن من عقل مهران، فرقص خياله من أول مساء البحر بإسكندرونة، حتى فجر الحدائق المحروسة بالبوغانفيل في كلاس.

كانت اللغة السريانية تحت يدي مهران، قبل النداء الذي تفتقت بزرته في ميناء اسكندرونة ـ ميناء الخليج المُتكتِّم على أحاديث القيَّافين في متاهات البرزخ الإغريقي: حَوَت مكتبة أبيه، التي ورثها مع أخته شَيُول فأخذت نصفها إلى عفرين، ما يخرج عن تدبير اللسان في الفهم. طبٌّ، ومنطق، وشرائع مأهولة ومهجورة، وكيمياء، وفَلَك، وهندسة، باليونانية، والفارسية، والتركية، والعربية، والهندية؛ وترجمات بالسريانية عن فلسفة أهل العقل المسحور ـ عقلِ الوصف الكامل لآلات النقصان؛ وصحائفُ لها حجوم الأبواب تحوي خطوط مِلَل الصين المطوَّق بحجارة الشُّهُب، التي نفخ عليها الغيهبُ من جهات الكلب الأكبر في دخوله برج القوس، فتساقطت أشجاراً سوداء، وأنصافَ أسماكٍ سوداء، وتماثيل فِيَلةٍ وأحناشٍ.

لم يتوسَّط قلبُ مهران لخياله بين اللغات إلاَّ ما اتَّصل منها بالوجدان المُعَذَّب في سطور التاريخ، حيث يبني الغَدْرُ الممالكَ والدول، ويهدمها الصَّلاحُ؛ ويقدر السَّلبُ والغَصْبُ أن يعيدا صناعة الأقدار وفْقَ رغبة الرحمة. التفتَ بعضلة الاعتبار فيه إلى التركية، والعربية، وبعض الفارسية. لكن مكاشَفات الرقم، على ألسنة جباة المكوس السريانيين، أعاد إلى بصر أعماقه صورةَ المخطوط الذي دوَّن عليه أبوه زازا إيڤاردر بالكردية، تحت عنوانه السرياني، ترجمةً بالقلم الفحم: «المُحْتَصر في حساب المجهول»، مع تعليق مُحْتَطف من خوارق اللسان الحَذِر، وتوريات الخوف من العبث بالحدود المصكوكة من معدن المحظور: «حين يبلغ بكَ العدُّ إلى الشيطان يتضاعف الرقم الذي أنتَ فيه. نصف ذلك الرقم هو الأزل. وحين يبلغ بكَ العدُّ إلى الله يُحْتَزَل الرقم الذي أنت فيه من تلقائه. نصف الرقم المُختزَل هو الأبدية».

«نبدأ من السريانية، يا دلشاد»، قال المتَّكئُ على خزانة لقبه الأزرق، وسرد عليه، باختصار في تحديد الجهات والوقت، أنه أبلغ الباشا الشارد العينين في كوماجينا بقدوم دلشاد، عسى يشمله آمرُ مكتبتها بسخاء الصبر، وسعة الصدر، والسلوك بالحروف السريانية إلى الترويض والاستئناس باستدراجها من ناموس حقيقتها إلى الإقامة في حقيقة لسان آخر، منعكسة الهيئات في ماءِ المعنى الواحد. «خذْ ثلاثة ديكة نقيَّة الخُصى، لم تمسَسْها برهةُ سِفاد بعدُ. السفاد يورث الكائنَ خيالَ الشكِّ». أخذ دلشاد الديكة، في قفص، وهي تتجادلَ، باهتزازٍ من أعرافها، في شؤون السديم الذي ترجع إليه روح الحيوان. نُحرَتِ الديكةُ على عتبة باب مكتبة كوماجينا. تلاقحت البرازخُ وتسافدتِ الحدودُ المحجوبة ببلاغة الدم وفصَاحته.

ثلاثة آلاف بيت من الشعر أُلقيت على مسمع دلشاد، تحت غمامة الإرث السرياني. ليس لدى سَحَرة تدوين النَّظْم المُسْتَغْلِق، أو المُبيِّن، ومثله من أناشيد الليل والنهار، ترجيحٌ للعدد المُحصى من سطور مرثاة «خراب أنطاكية». بعضهم قدَّرها بعشراتٍ تسعٍ، وآخرون بعشراتٍ مائةٍ غير منقوصة، إلا جرجو نيقو قاديشا، الذي عدَّها ثلاثة آلاف بيت وبيت واحد أكلت الأرَضةُ عجزَه، فآثر إسقاطَه من المرثاة لغرابة ما تبقى من صَدْره: «البقاءُ الذي يمزِّقُ ذلك كلَّه»، متحسِّباً للأمر بعذرٍ قويٍّ: «يا دلشاد، هذا البيتُ منحول. إسحاق الأنطاكي لا يشير بلفظ واحد إلى الزوال. الأشياء تتقوَّض، لكنها تبقى على صورة وجودها المحظوظ في عقل عناصرها. الوجود المحظوظ هو ما يكون امتنانَ الهيئة لأبعادها المرئية المعقولة في نَسَقٍ مُرْضٍ. الهندسة تفعل ذلك. الرياضيات تفعل ذلك. أعني الرياضيات. نعم. تجريدُها مرئيٌّ. دَعْكَ من هذا، وتعال إلى اسحق الأنطاكي. إنه لا يشير إلى الزوال، فلماذا يُقْحِمُ البقاءَ في الشطر الأخير من مرثاته؟. ها؟».

تسرَّبت إلى مرثاة اسحق الأنطاكي أبيات عن ظلال شجر النارجيل في كوماجينا ـ ظلال الشجر الباكي بدموع الفلسفة على أفكار الثمر القَلِقة. لم يدبِّر لها جرجو تبريراً ـ ربما مرَّ اسحق بأرض كوماجينا، في لحاقه بخيال الأعمدة وهي تنهار تحت ثقل السِّحر الزمني: الأعمدة الذهبية؛ التماثيل المطوَّقة الأرداف بأحزمة الوجود المرتخية؛ الأبهاء الناطقة بلسان الرخام؛ الآنيةُ الجِرارُ المنقولة بأقلام الخزف عن عقل اللون. من معاقل السهول الملتوية حول نهر العاصي حتى قلعة أعزاز المحمومة من ريح السلجوقيين، نثر اسحق لوعتَه على بساتين التاريخ، كلِّ بستان بحسب ما حوى من مراتب أنطاكية ـ فردوسِ النهب المتعاقب بين أمم الغضب، حَمَلةِ بيارق الشموس، والنسور، والآساد، وأنصاف الأقمار، والصلبان، والنجوم. قراءة في الوَدَع كانت أنطاكية؛ تجمعها يدٌ وتبعثرها يدٌ، فتجتمع لها حظوظ الحدائق مرَّةً، وحظوظ المدافن مرة. روم، وفُرْس، وعرب، وصليبيون، وعثمانيون، بتعاقب مُنْصِف للمجهول المحيِّر، والمعلوم المبذِّر، يضاف إليهما زلزالُ القرن السادس بعد معجزة الحَبل السماوي ـ زلزالُ المشادة المدبَّرة، بإتقان، بين الله والوجود: «أيها المساء الذي تحمل على ظهرك، كالأتان، ريحَ القَسَاد الذي امتلأ به جوف البَيْض». كذا صَكَّ الأنطاكيُّ معدنَ شفقته على طباع الصيرورات، في البيت المُشرف من سطور المرثاة على حقائق الليل والنهار، المدوَّنة بانفجار العناصر الترابية غيظاً ـ عناصرِ تأويل الغيب المحسوس مثل فُساء

الظربان. وقد أُلحقَ جرجو بمطلع فقرة الزلزال من عمود المرثاة بيتاً آخر، باعتراف وحيد منه، ابتغاء «ترميم» المعنى ـ كما يقول ـ بهيكل من المجاز الذي لا بدَّ منه ليصير الشِّعر إشراقاً من عصيان الكلمات للكلمات، ومن طاعة الكمال للعبث: «أيها المساء الكلب، اللاهث، الذي يقود الإنسان الأعمى إلى هاوية النُّور»، جازماً أنه أراد «النُّورَ» رمزاً لبراعات العمران، وترف الزخرف والنَّقش.

كانت شمس الربيع، الموشومة برُقى القَلَكِ الرابع ـ قَلَكِ الخصائص الأزلية، منعكسةً، في الهزيع الأول لمغيبها، على الجدول الصغير الذي لم يترسب من دمِ الديكة الثلاثة، حين غمس دلشاد ريشة قلمه المثقوبة في سائل الحياة، ودوَّن تاريخَ قدومه إلى كوماجينا على صفحة من دفتره المجلَّد بلوحين رقيقين من قشر البلوط المضغوط بعد نَقْعِه في لبن الخيل. جرجو، نقشُه، مَهَرَ الصفحةَ برَسْم إبهامه تأكيداً للرهان على سباق دلشاد مع المكان المطلق السراح كعلوم البدء. وقد كانت الشمس ذاتها ـ شمس الربيع المختمرة في حقول الهندباء والناردين، هي المنعكسة، في الهزيع الأول من الصباح، على بِرْكة دم الديك الروميِّ المذبوح على عتبة باب مكتبة كوماجينا، حين غمس دلشاد ريشة قلمه فيها ليدوِّن يوم رحيله عن بساتين جرجو المستورة بحجاب من أشعار سَلفه الحزين اسحق الأنطاكي، بعد سنة وشهر واحد من الإقامة في برزخ الحروف السريانية: «أستاذ قاديشا، ضعْ صورةَ إبهامك المغموسة في الدم على طرف منديلي هذا، الذي مسحتُ به أربعة آلاف مجلد. لن أغسل عنه الغبارَ الناطق»، قال متلفتاً بعنقه إلى شجرات الميموزا الأربع في الساحة المفتوحة، جنوباً، على مقابر الغرباء المجهولين. تحت الشجرات كان الشيخ مراد حاج كوزلي متكئاً بظهره إلى جُرن حجري، معفَّر الهيكل، من عمامته حتى قدميه الحافيتين، بالهبوب الخامد لزهر الميموزا ـ زهر الولادة العسيرة لغمامة اللون الأصفر من رحم شقيقتها البيضاء. «إنه ينازع»، تمتم دلشاد. مَهَر جرجو طرفَ المنديل بإبهامه: «منذ ولد وهو في أمره هذا. سينازع حتى في الجنة»، قال سليلُ الهدنة الأبدية للخيال السرياني.

تحت شجرات الميموزا أنهى الشيخ مراد رحلة جسده الصائم، الذي انتقل به من شجر الكينا إلى شجر التين، ومن شجر الكستناء إلى الأكاسيا. انجلى لعقله الممهَّد بالزخارف الذهبية ـ زخارف التأويل السالك محموماً بين التيه والندم، أن التكْفير، الذي قالت به أممٌ من أحزاب الوعيد بلا نهاية، تكْفِير مبتور. فما طاول من الأحكام أطفالَ الزنادقة بتكليفهم شُبهاتِ الآباء، ينبغي التوسُّع فيه على المطابقة بين المادة العضوية والإرادة. فالأغذية تولِّد للجسم ما يصحُّ به توليدُ الفعل: «التفاحة، على الشجرة، هي غير ما هي وقد انهضمت في أحشاء الزنديق»، قال كوزلي. التفاحة إمَّا شرٌّ أو خير، لكننا لا نعرف منزلتها على الغصن. لا بأس. ما يجري في التفاحة يجري في اللحم، والكرَّاث، والعدس. الفهرست، الذي حوى أسماء النَّبت، والبزور، انتهى في فضل ختامه بالمنيِّ. أخذت الحيرةُ بلجام المُقايسات في إشراف كوزلي الشيخ من حقل التَّكْفير العاطر على آلات الحقِّ ـ آلاتِ صَقْل المغاليق، وترميم الأقفال: «المنيُّ شُبْهة»، قال. نَحْويُّو الرموز، والمواثيق المؤكَّدة المفقودة، في أنحاء من جبال أمانوس، لم يناهضوه ولم يُمالئوه. تركَوا لأسبابِ اجتهاده أن تبقى معلَّقةً إلى باب الوحي من وجه، وإلى باب الكَسْب والتحصيل من غرائب

الأحكام، من وجه آخر. فاشتد بالشيخ كوزلي نزوعه إلى تفريع المُشْكِل من المُشْكل: «الماءُ شبهة. الماء غذاء الشرِّ في الزنديق»، قال. قُرئتْ عليه كرامات الماء في الأحكام، فأكد جوازَ النَّسْخ من العلماء الأقطاب: «لا كرامة للماء بعد انكشاف المحذور من علَّة عنصره. انكشفَ الماء لي، وأنا قطبٌ»، قال، ثم أسلم جسدَه للجفاف الطاهر، صائماً، ينقل طبائعَ الرطوبات، في الخلية، من حال ذهول إلى حال ذهول، حتى تبعثرت مقاديرها في رُسوِّ الغيبوبة به تحت شجرات الميموزا، حيث ألقى دلشاد ببصره وهو يستعيد منديله المذَّيلَ بتاريخ الظاهر من جرجو نيقو قاديشا.

«المُخْتَصَر في حساب المجهول» هو المخطوط المُسْتَنْسَخ، الذي وضعه الأمير ذو اللقب الأزرق، بين يدي الخيال المُمْتَحَن بدورة المطابقات اللامتجانسة ـ خيال الترجمان في المنزل الثالث من عقل دلشاد. كانت الغرفة، المخصصة لإقامته، بارتفاع خفيف عن السور الجنوبي من دار مهران، تطل بشباكها المطوَّق بحجر أصفر، نافرٍ، على حقل شجيرات اللاَّذن ـ شجيرات الميثاق المائيِّ، المحاصر دائرياً بطريق مرصوف حتى سوق كلاس الكبير. «الترجمة ماءٌ»، قال مهران حين قاد ترجمانه من البوابة المشرفة على نهر نُوْهْ آثْ، عبر الممر المسقوف برقائق القرميد ـ خزفِ المكنون المشوي فوق نار العلوم، إلى الغرفة المنفصلة بتمامها عن هيكل الدار العالي. «نحن ندعو هذا النهرَ نُوْهْ آث، والأتراك يدعونه يَلْدِزْ». نبعٌ ـ سُرَّةٌ في جسد الظاهر المؤجَّل سَفحَ معادنَه الدَّهرية في الأخدود المتفرِّع عن انهدام وادي قره صو، فقطع كلاسَ من ثلثها الغربي. على ضفة المجرى الشرقية بنى زازا إيڤاردر، والد مهران، دارته طبقتين فوق نجدٍ منحدر باتجاه الماء. جعل عينَ البوابة ـ المطعَّمة الخشب بأصداف تتبدل ألوانها في المغيب، اجتُلبَتْ من حرش الدَّلْبوث في جزيرة ساموس المهجورة ـ على سطور النشيد، المحفورة هَمْساً، في لوحِ نوه آث الشفيف. أزاميلُ الزبد الرقيقةُ ابتكرت حروفَ الظاهر الخفيِّ معروضةً بكمالٍ على خيالِ زازا. «هلاَّ رفعتَ الماءَ سُوْراً حول بيتي؟»، قال الرجل للمعماريِّ الأصمِّ، المنحدر من سلالة فَنيَ نصفها بسموم الزئبق، في توبيخها العلومَ المقصّرة عن تحويل الزئبق إلى تبرٍ، فردَّ الأصمُّ برطانة فيها نبرٌ من صوت طيور الفُوق: «ألا يكفيك سورُ السماء، يا نقيبَ البَرِّ؟».

كانت الغرفة ـ المنفصلة عن مجرَّة الدار ذات المداخل الثلاثة، المتفرِّعة عن الصحن الحجري الذي يلي البوابة ـ منذورة، في الأصل، لآلة زازا الخشبية، الضخمة: ألواح وأسطوانات، قبَّان، مروحة، أمشاط مستطيلة مثبتة في تجاويفَ أفقياً، ملاقط، حوض تحت الألواح غير عميق، عتلة ذات مقبض تُدار باليد. آلة من قديم الإنشاء الصيني لورق الرسوم، حملتْها الجِمال القاجارية أجزاءً إلى بُخارى، ثم حملتها بغال صحراء الملح إلى قزوين، ثم حملتها القوارب في فروع الأنهار إلى بحيرة وانْ، ثم لهثت بها عربات حمير الأناضول البيضاء إلى نبع كلاس. نُصبت الأجزاءُ هيكلاً كهيكل الوقت، ودُهنت بزيت زيتون رودس الأسود فالتمع بالعافية خيالُ الخشب الساهرُ، منذ بزرة نشأته الأولى، على تكليف حقيقته بصناعة الكاغد.

تحصَّلت لزازا علومٌ صغيرة في مهنة انتقالِ العجين إلى ورق، بمخالطته الورَّاقين في أورفا. لكنه آثر اعتناقَ المجازفة بالخمائر في صيرورتها غذاءً لصناعة المخصوص، وابتكار السريِّ. وقد خذلته

الخمائرُ حيناً، وأعانته حيناً: إمَّا يتفتت الورقُ من مقادير أخلاطه اللامتجانسة، أو يخرج نبيلاً بجوهرٍ ليس إلاّ من خصائص الجسارات. كان زازا يخرج بمحصول من ورقة أو ورقتين في شهر، بمقاساتٍ لا تتعدى أشباراً قليلة، يوقفها على أهل الخط، وسادة الرسوم من الكرد. فإذا عادت الأوراق إليه معتنقة خيالَ المقادير الكبرى والصغرى للأشكال، متعْتعةً من غَزَل اللون، وهَبَها لباشوات من آل زنكي في معرَّة النعمان، وآخرين في أعزاز.

لم تبق نُخالة شعير، أو حنطة، أو جاوَرْس، أو ذُرة، أو لوبياء يابسة، إلاَّ روَّضها زازا على الملاسة بعد حَذْفها رقائقَ حَسَنةً بتدبير خمائرَ من أحماض الصمغ، يترسَّب منها الجوهرُ كَيْفاً، والكيفُ جوهراً، في الحوض الذي تتخذ فيه العجينةُ خصائصَها النهائية كورقة ينشِّفها بمروحة قصب الغُدران. طَحَنَ نِقْيَ نبات الأخيون، ووَزيْم النخل، ومزجهما بدقيق صَدَف الحلزون النهري ـ حلزون لسان الحقائق الرطبة، ثم جفف الخَلْطَ في ساعة المغيب من ستة أيام في أيَّار العاقل، وأعاد عَجْنَه بعصارَة حَبِّ القُرطم، فاستخلصَ الورقَ الأصفر الصالح لتدوين الحِكَم الهندية بالحبر البُنيِّ ـ حبر اللون الملجوم. نقعَ القطن، مُسْتخرَجاً من جوزه الأخضر قبل نضوجه، في نشارة شجر السرو، وأضَاف إليه صمغَ الغار مع حمضِ الحصرم، فاستخرج الورق الرماديّ الذي يغري باستراق البصر، عبر اللونين الأحمر والأسود، إلى العَدَم مُظَّللاً بحروف أهل الحبشة، التي شاعت في الوشم. ولمَّا استنفد زازا كيمياءَ النِّسَب العضوية في معاجينه، نزح به خيالُ المحظور إلى تدوين أحكامٍ في ما يتوجب تخطيطه على جلد الآدمي، بحسب جلْد كلِّ عضو فيه:

«جلد الظَّهر يصلح لنقش أشرعة المراكب. الظَّهرُ خليجُ الإنسان، وما بين تَرْقوتيْه ريحٌ».

«جلد الصدر، مع حفظ الحلمتين فيه، يصلح لنقش النمور تتصيد الحمارَ الوحشيَّ. الصَّدرُ بريَّة الإنسان، وما بين الثديين آثارُ عميانٍ قنّاصيْنَ بالسَّمع وبالشمِّ».

«جلد البطن يصلح لنقش الأسماء الكبرى ـ أسماء الأفلاك الأرضية المتصلة بأسرار العنب. البطن آلةُ الإنسان في تمكين المُطْلَق من العثور على أغذية الجوهر».

«جلد العانة يصلح لنقش نبات البرسيم. العانةُ حياءُ العقل من النظر إلى نَفْسه يرعى في حقول جيرانه الثلاثة: الخيال، والتيه، والمحظور».

«جلد الردف يصلح للدمغ بختم المَكْس الأزرق ـ مَكْس الزجاج والخزف. ردفا الإنسان سِيرَتُه».

«جلد الفخذ يصلح لنقش الاسطرلاب. فخذ الإنسان عِلْمُ جسده».

«جلد الرقبة يصلح لرسم الخنفساء بالحديد المحمَّى. الرقبة حماقةُ الجسد في الإشراف على القناء المهرِّج».

«جلد الجفن يصلح لتدوين الرقم التاسع. الجفن علامة الحجاب في الإنسان».

«جلد الغُرْمُول والصَّفن، من غير فصلٍ، يصلح لنقش بيت من الشعر في خصائص الموت. الغرمول والخصيتان من آلات الخوف».

أهمل زازا، في سِجلِّ الجلد المدوَّن بحبر من مرارة الوَرَل، ذِكْرَ الذراع، والساق، والعَضُد، والرأس خَلا الجفنَ فيه. لكنه استفاض في ما يصلح له جلدُ ظاهر القَدَم مع استبقاء الأصابع

الخمس: رَسْمُ الفَلَك على صورة زرافة بخمسة أعناق؛ أو الديك بخمسة رؤوس؛ أو تخطيط كلمة «الخسارة» سبع مرات تلحقُها تعريفاتٌ فيها إطراء، واستحسان، وتفخيم، ومَلاحة، واستعْذاب: «ربْحُكَ من الخسارات لا حَصْر له. إحْسَرْ أكثر تَزْدَدْ ثراءً». «الخسارةُ يقظةٌ، الربحُ إغفاء». «الخسارة لذّةُ الربح».

في الغرفة تلك، المشرفةُ بشبَّاكها الجنوبي على حقل شجيرات اللاَّذن، تماوجت كلمات الأمير ذي اللقب الأزرق في خيال دلشاد: «الترجمة ماءٌ». ربما كان الندى المنتشر من أنفاس نهر نوه آڤ على فضة الحياة، حول دار مهران، يستدرج العلومَ إلى النظر في منشأ الحساب الأزليِّ ـ الماء شُعلةِ الرقم الأول؛ رقمِ المُمكنات. لكن مخطوط «المُخْتَصَر في حساب المجهول» بدا على شَكل كثيب في صحراء من الريح لا من الرمل، عليه أثر من أصابع الوَرَل ـ سادن الجفاف الناطق بأسماء المجهول الأربعة: العِلْم؛ النسيان؛ البداية، والمقدور. ربما أطلقَت توريات الأب زازا إيڤاردر ذلك الوَرَل من كمين سطوره «حين يبلغ بكَ العدُّ إلى الشيطان... الخ. حين يبلغ بك العدُّ إلى الله... الخ»، ربما. رأى دلشاد الأثرَ الخفيَّ للحيوان الزاحف في مجاهل الحرف السرياني. قلَّب الورقَ الخشن بأنامل تتقرَّى ممحاةَ السرِّ. قرأ اسم المؤلف: جرجيس لوقا سالوحي: «هذا كتابُ الأعيان المنتظِرين أن يلدَ أحدُهم من عقل الآخر وهم يلعبون الشطرنج».

«بقي القليل، يا أكيسا»، قال دلشاد، في مساء الخريف المرصَّع بخرز الفرات. «ماذا نفعل إذا أنهيتُ الترجمة؟».

وضعت أكيسا شفتيها المملَّحتين من قَصْقَصة بزر اليقطين على زاوية فمه اليسرى. تذوَّق بلسانه خيالَ لسانها المشتغل على توليد الحواسِّ السبع ناطقةً بشهواتها. قامت إلى النافذة الشمالية ـ نافذةِ الجهة العجولة. أبعدت ستارةَ النقوش الجبلية بإصبعها مقدارَ فِتْرٍ ترصد ساحة الدار.

«سنجد حلاً»، قالت من غير أن تنظر إليه. تراجعتْ عن النافذة: «سأذبح هذه البلدة فرداً فرداً على ركبتيَّ إذا أنهيتَ الترجمة. الانتهاء منها مُلْكي، وحدي، يا عِرْقَ كبدي يا دلشاد»، قالت، متجهة إلى الباب الذي فتحه لها الشاب. رمتْهُ بحفنة من بزر اليقطين، وانسلَّت.

الفرسخ الثاني

(شجرة الهَرْهَر)

عراءٌ عشبٌ تسلَّم زمامَ الفضاء الشاغر من دار مهران حتى نهر نوه آڤ، ومن أطراف حقل اللاذن حتى دار أُوْرَال بَكْبَكيجوك، ابن عم الوالي صَقْوَت بكبكيجوك المنتفخ الرقبة من داء الغُدة الدَرقية. مهاجرون من الهُون البيض، حملتهم رياحُ جبال التائي، نثروا بذورَ العشب المسحور ذاك، قبل ثلاثة عقود، يرعونه بمَعْزهم الشقْر القرون، فظل ينبت كل عام بنفسه، أخضرَ في زرْقةٍ إلاَّ أيامَ انكباب ظل الجليد المرتفع من قمم طوروس على كلاس. في الممر المرصوف بحجر الزمهرير ـ حجر المغاور الرطبة، الممتد من الجسر قبال دار مهران إلى السوق، التقى دلشاد وديْنَان برْوار النحيل،

عديل الأمير في الزواج من شقيقة امرأته. «خطواتك واسعة»، قال دينان ذو السترة السوداء المقصَّبة، والحذاء المدبَّب كسهم.

حازَهُ دلشاد ببصر الحروف في خياله : «أظنُّ الأرضَ تتمطَّى لك وتتقاصر لي».

ابتسم رجلُ دار الصكوك النقدية التابعة للأمير مهران. تلمَّس شراريب عمامته المذهَّبة: «أرأيتَ زوجتي؟».

ـ زوجتك ؟

ـ خرجتْ باكراً إلى دار مهران، ولم ترجع بعد.

مال دلشاد بوجهه صوب النهر صامتاً فلم يكرر دينان سؤاله. سمعا جلبة فحادا عن الممر المرصوف. جاورتهما عربة مهران ذي اللقب الأزرق. أحنى الرجل جذعه من تحت القبة الجلد الملتمع بعافية الأصل الحيواني: «أأحملكما معي؟» قال، فردًّا بإشارات امتنان من الأيدي: «نفضِّل أن نتنقَّس بنهم مثل جوادك»، نَطَقَ دلشاد، ثم توقَّف. توقَّف دينان الكهل. فاجأتهما جَلَبةٌ أخرى: خرجت عربةٌ ثانيةٌ من بلّورة الفراغ وهي تزاحم عربة الأمير فكادت تصدمهما. هرولا جانبياً حتى صارا في العراء العشب. تجاورت العربتان. مدَّ الرجل ذو الطربوش، الجالس في العربة الأخرى، رأسه من القبة السوداء: «كيف حال إمارتك، اليوم، يا سيد مهران؟»، فرد الأمير ذو اللقب الأزرق:

ـ كحالك، يا سيد أوزال بكبكيجوك باشا.

تعرَّقت حجارة الممر من أنفاس الجوادين الملجومين، اللذين أفسحا للتهكُّم بين مهران وأوزال خلوةً يشحذ فيها معدنَه المُستثار.

«ما القويُّ فيك، وما القويُّ فيَّ، يا سيد مهران؟»، قال أوزال، الذي نطقت سُبَّحةُ الفضة، في يده اليسرى، بلسان المعدن فيها ما ينبغي أن يسمعه الغيب، فردَّ ذو اللقب الأزرق:

ـ القويُّ فيك ما تعرفه من ضعفك. والقويُّ فيّ عظامي.

تراشق حوذيَّا العربتين لفافتي تبغٍ. كلٌّ حضَّ الآخر أن يتذوَّقها، بحركات خرساء، تغليباً لمذاهب النكهات على النكهات، خضَّ الدم قِربةَ زَبَده في صدغ أوزال:

ـ لماذا نحبُّ حكمةَ الجزَّار في مباهج أقسام اللحم، ونبتذل مهنته؟

«ربما لأن مهنته هي حكمتنا يا سيد بكبكيجوك. لكنني لا أفهم لماذا تبتذلون مهنته»، قال مهران محاصراً سُنَّةَ بكبكيجوك في أحكامه. استدرك بكبكيجوك لفظَةُ المتناثر: «لا أعني الابتذال تماماً، بل نترفّع. حسناً: نتباهى بكلاب الصيد، ولا أحد يريد أن يكون كلباً»، قال مُمْتنّاً، بابتسامةٍ، لبلاغةٍ طاوعت شرودَ لسانه عن المعاني، فابتسم ذو اللقب الأزرق بدوره من جفاف المعنى على لسان أوزال. حيَّاه مودِّعاً: «أأعتبر جوادي حرّاً الآن، أيها الباشا المحفوظ؟»، قال، فاستوقفه الباشا بسؤال غير مبريٍّ:

ـ أيُّ ضياء أحبُّ إليك: ضياء النهار أم العقل؟

«ضياء النهار، لأنه يساوي بين ظلي وظلك»، ردّ مهران.

«وماذا عن ضياء العقل؟»، ساء له أوزال بنبرة انتقاصٍ.

«أبْقِه لك كي يبهرني فلا أراك»، ردّ مهران.

أزْبَدَ قَلب أوزال. اعتصرَ بقبضة قلبه ناموسَ لسانه كي يطاوعه في تدبير الكيد: «أتزرع بندورة في حقلك؟ جلدُ مقصورة عربتك أحمر، يا مهران»، فتلبَّد مهران. ماج به حَنَقٌ خفيف لم يلجمه: «بل نزرع الطرابيش الحمراء».

فرقع سوط حوذيِّ الباشا فانقذفت العربةُ سابحةً في أخدود الهواء الأزلي. تقدمت عربة مهران، بدورها، حرَّةً. عاد دلشاد ودينان إلى سكة الممرِّ الحجر متَّصليْن بأجرام المتوازيات الخفية، وتقدَّما بحركة متصالحة مع ظليهما المتلامسين: «ألا تصكُّ معدناً اليومَ؟»، ساءل الشابُّ، المقيَّد بالمعاني المتناظرة في الترجمة، رفيقَه الكهل ذا الحذاء المدبَّب، فردَّ دينان: «لم يصلنا نحاس من جهات أورفا. أنا ذاهب إلى دار الشحن لأستطلع الأحوال».

أوكل الأمير إيڤاردر إلى عديله دينان إدارةَ مشغل الصكوك الواقع شمال جسر نوه آڤ، بعدما استحصل ترخيصاً من السراي. أوحى إليه أملُ الخلود المُثقلُ بهبات النسيان أن يستحدثَ ما يثير شهواتِ المجهول إلى اقتناء المعلوم: لا أحد يريد أن يفنى في طريقه إلى ميزان الوجود الثاني.

الحياة مصيدة : ذلك ما عرفه ذو اللقب الأزرق في قراءة أحوال الإيمان. كلُّ الذاهبين إلى يقينهم بالسجلاَّت الموثوقة الأمينة على أن الغيب هو البقاءُ الكمالُ لم يستطيعوا خلعَ جذورهم الأرضية من سحر النقصان الزوال ـ النقصان، نفسه، كبقاءٍ كمال. أبقوا لوجودهم السائر إلى مجهوله الفردوسيِّ عيناً على الآثَار، التي أَطبق عليها المعلومُ من أحوالهم الأرضية بفكَّيْه الزمنيَّيْن، فابتكروا القبورَ، والألقابَ المتَّصلة بأسماء القوة أو الضراعة للقوة، والفخرَ بالذُّرِّيَة، وتدوينَ السِّير، وإخضاعَ العقل للخوف من نفسه كشكٍّ إلهيٍّ في اقتدار الإلهيِّ أن يسيطر على نسله الصاخب من أجناس الشر والخير في حديقته البلورية. عرف مهران ماذا يريد الواقفون أمام بوابة الوجود الثاني ـ الوجود المعلَّق بخيط من القطن إلى خيال الإنسان: إنهم مذعورون ممَّا ابتكروه للوجودِ الثاني من خصائص الوجود الأول المذعور، لذلك قد يطمئنون قليلاً بامتلاك أثر صغير يذكِّر أرواحهم بالعلامات الأرضية التي تعود بها إلى الوجود الأول، إذا تاهت في المسالك إلى الوجود الثاني، ولم تهتد إليه قط. وجود أرضيٌّ ووجود سماويٌّ، وبينهما الغيبُ المعلوم إلى درجة الضجر من تقدير خصائصه بحساب الأرقام الأبدية. نعم. الغيب حاصلُ جَمْع، وطرح، وتقسيم. الغيب شهوةُ الواقع إلى ابتكار نَفْسِه مفرطاً في الوضوح: «هَيُّوا إلى تأويلٍ يجتهد به المعدنُ في التوسُّط للمأزق». ذلك ما لم يقلْه ذو اللقب الأزرق، لكن أرَّخ به صيروةَ الخلود المرتبك، فأقامَ مشغلاً للمصكوكات الشبيهة بنقود الآستانة: قِطَع من مزيج النحاس ـ خيال الدَّهاء، والرصاص ـ خيال الكُلِّيات المُعذَّبة. دوَّن عليها، بالنقش النافر، علومَ المجازات الصغرى: مواليد الأشراف، وتواريخ الأنساب، وألقاب الأمكنة، وأشعار الجنِّ، وصور الأشخاص، بضمنهم رَسْم الخاتون نَازْلي بكتاشلي بعد حفره على الجصِّ الطري بسكِّين النقاش جنكيز تَمامْسَت.

تولى دينان مَشْغَل الصكوك، مستحدثاً مباهجَ الخلود بين فرن المعادن الصغير وآلات الضغط،

التي يديرها ابن أخيه بمعونة النقاش ـ سيد الخطِّ والنقل. كان سعيداً بانتشار مصكوكاته المعدنية من الإسكندرونة حتى تخوم الأناضول الشرقية، وكان المُقْتَنون سعداءً بتحصيل الأسرار المعلومة على لوح الكرامات في غياهب المعدن، حيث تتجاورأساساتُ السِّحر وأساسات البرهان. دلشاد، نفسُه، اقتنى فلساً مدوَّراً عليه نقشُ العصمة: العين والسيف. وقد فاتَح دينان، في عبورهما ذلك اليوم حقلَ العشب المسكون بأرواح أهل التائي، برغبته في صكِّ درهم مهور برسم أبيه. نظر إلى حَدَأةٍ انقضت على غراب، في ضفة النهر: «الطير ترجمانُ يائس»، قال. التفت إليه دينان ذو الحذاء الملتمع من خلاصة شحم التيس الجبلي: «ماذا قلتَ؟»، تمتم، وأردف منصرفاً عن سؤاله: «لا أعرف كيف أُقنع مهران بالفضة في الصكوك بَدَلَ الرصاص».

هواءٌ مختمر في حرارة الأجبان أطلق قطيعَه على مدخل سوق كلاس. افترق دينان عن دلشاد. عَقْلٌ رطبُ ألهم سقوفَ خشب الصندل، في الممرات، أن تبتكر لنفسها تاريخَ الروائح، ببيانٍ كثيرٍ على لسان الملح، أو السُّكر، أو الحِمْض. تكلمت الحوانيتُ بمذاهب أشعارها القماش، وأشعارها الزبيب، وأشعارها الخلِّ، وأشعارها اللحوم، وأشعارها الطيور في الأقفاص، وأشعارها الأفاويح من فم النبات المجفَّف بخصائص أسراره الخجولة. لمح دلشاد شخصَ أكيسا عند باب العطار سِيْروبْ، الذي يُقْسِم أن الريحان ينبت من ذرْق الطائر الخائف. أبطأ سيرَه يترصَّدها ـ يترصد الوجودَ المطبقَ بيدَيْ كيانها على كَمَرة شهواته، المهذبة منها والمطبوعة على النهب: إنها تشتري بزر البطيخ الفارسي الأحمر ـ بزر القشرة القاسية واللُّباب المكتنز بعافية دهنه الحلو. فمها قَبْلَ القُبل، وبعد القُبل، مُملَّح أبداً، شفتاها مملحتان. مذ عرفها دلشاد وهي مُملَّحة من أنفاسها حتى كاذَتَيْ فخذيها. وهو يحبُّها هكذا ممرَّغةً في حيلة الوجود البهلوان داخل ظلام القشور المنطبقة على شحم النشأة ـ اللُّبِّ، الذي تستخرجه كاملاً غير مهشَّم فتنقله، برأس لسانها، إلى رأس لسان دلشاد. بزورٌ من كل صنف ـ حواملُ هيئاتٍ ببراثن الخيال الترابيِّ إلى علوم الوصف وعلوم الحيرة والإنخطاف: بطيخ أصفر بيضوي، ضغطت المُمكناتُ عليه بثقل الأسماء فَنَحُفَ بزرُه ورقَّ. بطيخ أصفر أسطواني، عضَّه الهواء فتقلَّص بزره. بطيخ أحمر بقشر داكن الخضرة، مختنق من حصار الدورة الشمسية حول خياله، اسودَّ بزره وانتفخ. بطيخ أحمر بقشر أبيض ذي حزوز خضراء هي حراثةُ اللون فيه، ترك الترابُ بأنفاسه شهوتَه البُنِّية على بزره. دوَّارُ شمس، أخذتْهُ رعشةُ القوس في الفلك إلى تحصيل الزوايا الخفية، فتضلَّعَ بزرُهُ. يقطينٌ أشْكلت عليه أحواله حتى انحلَّ عنه الطَّعْمُ وفارقته مداركُ الذوق، فتلبَّس بزرُه بياضاً يتماهى، بخصِّيصة الحياة المُمتثلة ظلاماً في الجوف، مع اللاتعيين ـ شقيق الظاهر المُشْكل.

انتقلت أكيسا من حانوت العطار إلى الإسكافي. تسَتَّر دلشاد بعنقود من السلال يتدلى على باب بائع الأباريق والصحاف النحاس. ناسٌ كُثرٌ من الغادين والرائحين حجبوه في الُنقْلة التالية عن عيني المرأة الفارقة في سترة سوداء ذات كُميَّن واسعين، مشمولة الرأس بطوق سميك من فتائل الخيوط الذهبية فوق خمارها. ترقرق فوحُ ثيابها من خيال دلشاد إلى رئتيه. تنفَّسها من حدائق الشكل فأعادها هيولى إلى قِدَم المُمكنات. انتقلت من الإسكافي إلى الحلاج، في موج

مُسترسِل من حفيف سروالها الطويل الفضاض. هي تغسل ثيابها، أبداً، بإضافة القرفة إلى الماء، وتبخّرها، حين تجفُّ، بالمُصطكى المحترق فوق عيدان نبات السوس. هيَ هيَ. بشرة شديدة البياض، تقشَّر عنها صَدَفُ الحجاب دافئاً في خيال وجودها القائم بحاله في خلاءٍ سحاب. زغبُ صدغيها أبيض. رموشها بيضاء تنغلق وتنفتح عن عينيها البنِّيتين غماماً رقَّنَه ظلُّ الخفاء المحفوظ. لكن مجادلات اللون حول طبائع الفروق أنبتت لها شعراً أحمر، مشتعلاً، فيه وعد اللَّمس أن الحريق عافيةُ الطاهر. وقد تحرَّى دلشاد، في ذلك الحريق الهدايةِ، نقوشَ قلبه النافرة على لوح قلبها، حتى أيقن أن اللون سيرةُ الكمال تُملى، من فم الخَفيِّ، على العِلْم المتحقِّق من خواص الجمال المنظورة في هيئة شَعرٍ كشعر أكيسا: احترق فيه، فاستولَدَ نَفْسَه من خيالها لا تعرف تاريخاً لحضور الحواس قبله ـ لا شمَّ، لا لمسَ، لا سَمعَ، لا ذوق، لا نظر إلا استحدثتْه بحدوثه ذَكَراً من عماء المسكونات الحية.

أحبَّت أكيسا، في أواسط أربعيناتها، دلشاد الشابّ ـ حبيسَ النُّقلة من لسان الحروب، في مضائق الترجمة، إلى لسان الحروف. رازتْهُ ببصر الوجود النَّهم في بهو دارة الأمير مهران، يوم حلوله الأول، على صَحْفة العشاء ينقل الأرز خجولاً إلى فمه، فيما تحثه نُوفاجَان، زوجة الأمير، من وراء أكتاف ثلاثة من أبنائها القادمين ضيوفاً على أبيهم من جهات ملاطية: «كُلْ يا بني. هذا أرزٌ أنضجتْه أنفاسُ الفَخّار».

ضحك الجالسون من توريةٍ حُجبَتْ عن عقل دلشاد. ينضج الرزُّ في الآنية الفَخار، فما وجه الظرافة في الأمر؟ تتالت المكاشفاتُ المرحة حتى انكشف المُسْتَغلِق المستور: ينضج الرز في ورق الموز إذا طُوي ودُفن تحت جمر مطمور بالرمل. ينضج ملفوفاً بورق التبغ العريض، على نكهةٍ كخيال الديك: غبش وراءه فجرٌ يقشِّره فجرٌ آخر. ينضج الأرزُّ على اثنين وثلاثين نحواً في محفوظات الطُّهاة بخان أنطاكية. لكنَّ ما نُقِل عن أمِّ أكيسا يضيف إلى القائمة ما لم يَبُحْ به الرزُّ من مذاهب عقوده مع الطهو لطاهٍ قبلها. أكيسا روت ذلك في مجلس الأمير قبل ثماني سنين: «ضمَّت أمي راحتها على حفنة من الأرز. استندت بمرفقها على المسطبة وقربت يدها من السراج. بقيت على حالها هكذا، ثابتة، حتى الفجر». تفاوتت الشروح، بالطبع، بعد صُلْحٍ حَسَنٍ بين السِّحر والتسليم حتى راقت الحكاية بما تقطَّر من شحم الحكاية: ابنةُ آخرِ منتسب إلى السلالة الإنكشارية بازرباشي مراد أثارت حفيظة سهْدة، أم أكيسا. «أتعرفين مَن فنون الطهو غير السَّلْق؟»، قالت، فردت سهدة بالكردية: «بل أعرف كيف أشوي فرجك على عودٍ، في الشمس». امتعضت ابنة بازرباشي: «لم أفهم»، قالت بالتركية، فسحبتها سهدة من مرفقها: «تعالي يا فساء الإوزة. سأريك علومَ الجن».

عضَّت كلُّ سماءٍ على ذيل السماء التي دونها حين اتكأت سهدةُ على المسطبة، مضمومةَ الراحة على حفنة رز، وقربت يدها من السراج كأنما تشويها. لم يكن في الحكاية، حين سمعها دلشاد، ترتيب لصور المكان، أو إحكامٌ للمنظورات. هي جَرَت فحسبُ، في بيت مَّا، من المساء حتى الفجر، الذي فتحت فيه سهدةُ راحتها فإذا الرز قد نضج من كثرة العَرَق الساخن بفعل لهب السراج

القريب من يدها: بخارٌ داخل الراحة المضمومة قامَ مقام شقيقه البخار في القِدْر: منطقٌ نَحْلٌ لا غير. عِلْمٌ طنينٌ منذ عرف كائن الرسوم الناطقة أن مذاقَ المأكولات يستوي مطابقاً لخيال الجوهر إذا نضجت في وعاء فوق النار، أو وعاءٍ مغلق تحت النار. دلشاد، على نحوٍ لم يحتكم فيه إلى لسان الحيطة، بادَأَ أكيسا، في ظهيرة اليوم الثاني: «أفعلت أمُّك ذلك، حقّاً؟». أخرسَهُ سكوتُها الممتلئ بشفاعة عينيها المتأملتين: «سأُنْضُجكَ أنت في راحتيَّ هاتين، أو هنا»، ووضعت يدها على بطنها.

عبرت نحلة تحت أنف دلشاد فارتدَّ برأسه إلى الخلف. لم يكن الخريف قد اكتسى، بعد، صلابةَ القشر البارد. رخواً دافئاً ظلَّ فوق البَيْض الذي يفقسه غمامُ كَلاس. الزنابيرُ ـ كلماتُ الصيف الخشنة حوَّمت، عاقلةً، فوق أكباد الخراف المعلَّقة بالخطاطيف. الدبابيرُ ـ اللهاثُ الساخنُ كانت أبطأ في طيرانها قرب قشور البطيخ المرمية عند أحواض الماء الخاصة بدكاكين البقالين، لكنها لم تَعْدَم تدبيرَ الكمائن للنحل، بالتماسها الثغراتِ المموَّهة في سُور الهواء: توقِفُ طيرانَها فتسقط، عمودياً، على ظهور النحل، بلا إنذار من رفيف أجنحتها.

نَحْلُ الوالي صفوت بكبكيجوك هو الذي يسقط في كمائن الدبابير، لشدة اشتغاله على احتكار السوق في كلاس. اجتاح الحقولَ، والحدائقَ، والبساتين، ثم قمامة قشور البطيخ حيث ترتع الدبابير. كان نحلاً خَلَبَه إطراءُ الإقليم. وُصف عسلُهُ كاقتدارٍ من آيات الطبيعة على تصريف الطَّعْم المُعْجز: عَسَلٌ صورٌ تنتقل من لسان المتذوق إلى لسان أحواله. صورٌ ظلامٌ هي البيانُ الذي درَّبت جذورُ النبات عليه هداية الزهر في انقلابه إلى نباتٍ نورٍ. ظلامٌ مذاقٌ من توريات التراب في مخاطبته البزور بأشعاره الماجنة. مذاقٌ أدراجٌ بين بساتين العلوم المحفوظة في خزائن الوعد الأزلي.

مَدْحٌ كثيرٌ أسْكرَ نحلَ الوالي، قَقشَا فيه التهوُّر: يخرج أبكر من أي نحلٍ، ولا يرجع إلاَّ في سواد المغيب إلى قُفْرانه ـ منازل الهندسة القَدَرية. استعراض وراء استعراض يدوِّخ به الوقتَ حتى يُغمى على الوقت، فيسطو بجَوهره الحرِّ على رحيق الهيولى الكُلِّية ـ بُرعم الفراغ المُشْكِل، فتتحيَّن له الدبابيرُ تلتقطه من برزخ المُطلق الناضج ـ كحساء ناضج ـ على جمر المعقولات. ترتفع به وتخرج به من بوابة سوق كلاس الجنوبية، حيثُ امتدادُ نهاية حقل الريحان القرمزي الداكن، المتصل بسور المارستان المتهدِّم المفتوح من جهتين. بُنِيَ من طين وسيقان قصب، فانحلَّت أقسامُه في فيضانٍ أوحدَ من نهر نوه آث، انحسر بعد أحد عشر يوماً، تاركاً للبساتين على ضفتيه غَمْراً من حصىً أبيضَ بعروق متشعبة حمراء، عدَّه العامَّةُ من «الهون البيض»، قبل رحيلهم عن كلاس، بَصَراً من أبصار العَدَم يتفحَّص به أحوالَ المُمكنات المذعورة. لم يغادر أحد من مرضى المارستان حدود السور. أُنذِروا أن المتاهة، التي تتحول فيها أعضاء الإنسان إلى قيودٍ من حديد، وحبالٍ رطبة، هي على بُعْد فِتر من جدران الطين المتهدمة، لكن ما من رغبة حَدَتْ بأيٍّ نزيل التطاولَ على مقام «العقل الضيف». هُمْ لن يغادروا حتى لا يستوحش مَنْ خصَّهم بالإقامة في صِوَر المرئيِّ المُحْتَجب، قرب خيالهم. «العقل الضيف» هو المقيم. ابتكر نَفْسَه من الوحي المُستَولَد في الحقائق المنكشفة ـ كالتوت ـ على أغصان أهل المارستان. جمعتهم شرطةُ الولاية واحداً واحداً بالدليل

القاطع على اتخاذهم علامةً منسوجة في سجاجيد الصلاة: سبع ورقات صغيرة بيضاء، تحيط بشمس صفراء ـ مَوْلدُ النور في حجاب الهيولى، قبل مرافعات الشَّكْل، القائم في خيال ذاته، أمام الله، أن يفوّض اللهُ إليه عِصْمَةَ الخُدعة التي اسمُها «المُحْدَث». أطلق عليهم المأمورون بترويض النفسانيات اللامسكونة اللاّمهجورة لقبَ «مِلَّة البابونج». لكن نزلاء المارستان سخروا من اللقب، بإشاراتٍ ناطقةٍ من فم السكون العاقل: «بل نحن مَنْطِق البابونج».

تلعثم بَصَر دلشاد. زاغ برهةً عن شخص أكيسا فانقلبت سديماً في غشاءٍ سديمٍ. أسرع الخطى في رواق من السوق يُفضي إلى عَرْصَة دائرية لا يشوب هواءَها نَفَسٌ من أنفاس الدلاّلين ـ أهل البُقول، والجِزارة، بل تتمدد على المصاطب، أمام أبواب حوانيتها، لفافاتُ قُماش ـ حدائقُ تتفجَّر تَرَفاً من أشكال أُمم الحيوان وأُمم الزَّهر، يعرضها القمَّاشون الأئمة في أصول السرد الصامت لحكايات اللون على الأبصار في إصغائها، والأسماع في تحديقها. مَنْ يدخل عَرْصةَ القماش عليه الاستماع ببصره إلى كلمات الشكل، والنظر بسمعه إلى ما يستعرضه النسيج من خيلائه أمام موازين الأحكام. لذلك، ربما، كان المأخوذون بـ «منطق البابونج» يجتمعون في رحاب الزُّخرف المرقون، جالسين القرفصاء في زوايا العَرصة، تأخذهم شرائعُ الجدال في منشأ النَّفْس من باب إلى باب، ومن تلخيص إلى شرحٍ إسهابٍ، ومن تفسير إلى تأويل، وقد عقدوا مناديلَ جيوبهم الصغيرة على حفنات من البابونج اليابس يتفوَّحون به ويَسْتروحُون، حتى سارت الرائحةُ فيهم مسرى تورية من علوم الكلام، فأجازوا بعثَ الإنسان نباتاً ذا زهر، يفشو طَلْعُه وينتشر لذائذَ في حالٍ لقاحٍ على حدائق اللانهاية. ولما بلغ خبرهم دارَ الإفتاء، في الولاية، رفعت الدارُ أمرهم ـ بالبرهان الدامغ على اتهامهم بالشَّغَب في شؤون العقل ـ إلى جناب الوالي، فكبست الشرطةُ معاقلهم في عرصة السوق، وتحت شجر السفرجل على الضفة الشرقية من نوه آث. لكن الشرطة تحيرت في اختيار المَحْبَسة لأناس هادئين، وورعين، فضمتهم إلى عامَّة أهل المارستان، الذين مسَّهم خطفُ الحقائق للحقائق بذهولٍ وديع. تآخى المذهولون المسلوبون والنزلاءُ الجددَ، المبشرين بطبائع الزهر. تآخى كل شيء من حولهم.

كان في مستطاع دلشاد أن يتشمم البابونجَ المحتجبَ في كماله النباتيِّ إلى ربيع آخر؛ أن يتشمم أُممَ الزهر في القماش المنبسط على المصاطب شِبَاكاً لقنص المعلوم التائه والمجهول التائه. دار بخياله على نقوش المكنون يستقرئ آثارَ أكيسا، السائرة على غصن اللامرئيِّ بقدمين من أنفاس المرئيِّ المُغمى عليه. تحيَّر قلبه برهتين. اقتحمَتْهُ: «أتبحث عني؟»، قال صوتُها. لم يلتفت. أخرج من جيب قفطانه كيس التبغ. عقدَ لِفافةً وأشعلها بفتيل القدَّاح. تقدَّمته أكيسا بسلتها الملآى صُرَراً صغيرة مما ابتاعته. خالطت الجمعَ الخفيف في العرْصة، فجاورها دلشاد مرسلاً بصره في كل اتجاه إلاّ إليها. تصنَّع التسليمَ على مارَّةٍ بيده، هامساً بلسانه المتحيِّن شهواتِ المغيب العتَّال: «أتعرفين من أين سأعضُّكِ لو خلا لنا هذا السوق؟».

«لو خلا لنا السوقُ لم أُبقِ لكَ لساناً»، قالت، وهي تنقل سلتها من يد إلى أخرى.

«لن أُبقي فَمكِ في موضعه، لو خلا لنا السوق»، قال وهو يقلِّب ذيلَ قماشٍ متفحِّصاً.

«لن أُبقي فيكَ شيئاً تنقل به شيئاً مني من موضعه. سأعيدكَ مرتجفاً كعُرف على رأس دجاجة»، قالت المرأة المشرقةُ في مغيب اللون.

«بياضُ جلدكِ هذا لن يبقى بياضاً، لو خلا لنا السوق. سأصبغه بشهقات كبدكٍ»، قال النازلُ، على سُلَّم الترجمة، إلى سطور ذكورته المُلْغزة.

«أتحدّثني عن بياضي؟ لو خلا لنا السوقُ جعلتُ كَبدكَ تفور بياضاً من فمِ عقلِكَ اللحمِ»، قالت أكيسا.

«لو خلا لنا السوق..»، قال دلشاد. علَّق قلبَه إلى سلسلة من الحروف بلا اختيار. مال بوجهه إليها ـ إلى شروقٍ بياضٍ وَخَطتْهُ أقواسُ حليبٍ: حاجبان وجفونٌ بلا أبعاد. حملها بلعقة بصره إلى فمٍ لوعته: «ماذا أفعل بكِ لو خلا لنا السوق؟»، قال وهو يلجم وثبةَ خياله إلى خيالها. تنهَّدتْ أكيسا، فتنهَّد دلشاد. ماجت العرْصة من سقوط شرارة ماءٍ رقيقة على عَصَب هوائها. قطرات متفرّقة أوقدت حركة القمَّاشين فهرعوا إلى أقمشتهم يجمعونها عن المصاطب، وينكفئون بها إلى دواخل الحوانيت. «جاءت الطيور»، قال دلشاد، ملتزماً كالمتسوِّقين أن يأخذ جانب السور الذي أشرفتْ عليه، من خارجه، أغصانُ شجر الكستناء الكثيفة ـ شجرِ الثمرة المحظوظة بوبر الباطن في قشر الظاهرِ الأب. «جاءت الطيور». طائر من رذاذ الماء المتجانس في هيئة عظامٍ وريشٍ يقود أسرابَ الطيور، العالِمةِ بتوليد الحيَل من بسائط المسكون المهجور، إلى المحيط الأعظم ـ محيط العلل والأحوال في صيرورتها ندىً يتدحرج على صَدَفة النشآت؛ الصَّدَفةِ القوسِ البلّور. تغرف الطيورُ من الندى بمناقيرها وتؤوب إلى السمت الأزرق، المتشقّق، الذي امتلأت حظائره الأرضية بمخلوقات الضجر. تفتح مناقيرها فيتساقط الندى قطراتٍ من حجومٍ بحسب جِرْم كل طير ـ كبيرةٍ، وصغيرةٍ؛ ذرَّةٍ أو ما فوق. مطرٌ يسرد السِّيَرَ الأزلية على عقل الوجود الأزلي.

«أفي خزانة لسانك شيء من أشعار الأغاني؟»، قال دلشاد، ملقياً بصرَهُ إلى سماء الطيور الخفية. قاست أكيسا، بعينيها، المسافة بينها وبين أقرب ملتجئ إلى السور الملتجئ إلى أغصان الكستناء. تلثَّمتْ بطرف خمارها فانحبس الصوتُ وتجمَّع دافئاً. أُطلقتْهُ يجري في اتجاه دلشاد:

«ما سرُّكَ، أيها اللص، الذي أُمكِّنه من خزانة شَبابي؟

خذْ كلَّ شيء. وتعال في الغد. سأملأ لك، ثانيةً، خزانة شبابي.

خذْ كل شيء، أيها اللص. سِرُّكَ أن تسرقني. سِرُّكَ أن تسرقني».

تنهَّد دلشاد. علا الصخبُ في عرْصة السوق: دخل كلبان سلوقيان سهميْن من لهاثٍ، مقذوفين إلى لوح الفراغ يسطِّرانه تسطيرَ المُباح المحظور بآثارهما التي تقود هيكليهما وراء أرنب أبيض، ملطخ الوبر من ارتطامه بجدران المسالك؛ أرنبٍ من ملَل الحيوان المحظي برعاية البستانيين. انتهرهما القمَّاشون بالمكانس، ورماهما البعض بالأحذية. حلَّقا طائرين في عَدْوٍ لا تمسُّ أقدامهما الأرضَ. حلَّق الأرنب بجناحَيْ قلبه المذعور. «أهذا فألٌ حسن؟»، قالت أكيسا. تنهَّد دلشاد: «لا تتوقفي، يا حظَّ المحظوظ». أرسلت المرأةُ ـ البزوغُ الصقيلُ لحجر اللون بصرَها إلى الدائرة، التي فصَّلها السلوقيان والأرنبُ تفصيلاً محسوباً بالدرجات المَكينة على كُرَةِ الأبعاد:

«من أين جئتَ؟

عمامتكَ هواء. قميصك غيم. سُترتُكَ رذاذ. حذاؤك جدول في حقل.

بصل. ثوم. كرفس. فجل. كُرنُب. هليون. كُرَّاث: هذا ما نبت تحت سريري حين خرجتَ هارباً، أمَّا خوفُكَ من أبي ـ الرعد فقد غطَّاني بالكَمأ.

من أين...». تشقق صوتُ أكيسا لَمَّا اتجه الأرنب إليها مستنجداً. ضمت سلَّتها إلى قلبها، ومالت في اتجاه دلشاد، الذي تمالك نَفْسَه المتماوجة بين أحشائه وصدره فلم يحتضنها. ارتدَّ الأرنب. مرَّ مندفعاً تحت أنياب الكلبين، فتصادما، ثم ارتدَّا. ذكَّرتِ الغيومُ الغيومَ بموعد الهدنة، فانْلَجمتْ. تقهقر القطرُ في اتجاه الأعالي، ريثما يمهِّد العقلُ السحابُ للمقادير حِصَصَها من حُرية الماء. عَلَتِ الشتائم من أفواه القمَّاشين مسنونةً كإبر النَّيْص تساوي، في وخزها، الكلبيْن بأصحاب الكلبين، اللذين خَرَقا مواثيقَ البرزخ في ما يضيفه الإنسان من حصانة الشهادة إلى قانونه، وما يضيفه الحيوان من حصانة الغيب إلى قانونه. دخلا حانوتاً لجأ إليه الأرنب، وخرجا ينبحان نُباحاً أنيناً بعد أنْ أُصيبا بقضيب حديد ـ مترٍ لقياس القماش. «أهذا فألٌ حَسَنٌ؟»، تمتمت أكيسا تُسَائل دلشادَ، رفع الشاب عينيه إلى السماء المغلقة:

«جئتُ من حظِّ المحظوظيْنَ؛

من حظِّ البصل المسقيِّ ماءً عذباً في الفجر؛

من حظِّ الهليون المُدلَّل من أبيه الشمس؛

من حظ النعناع النابت في ظل شجرة الغار؛

من حظ البَقْلة المبتلَّة، أبداً، حول البئر».

انتشر المتسوِّقون، ثانيةً، في عرصة السوق، فاختلط بهم دلشاد وأكيسا غير متجاوريْن، ثم اتجها إلى الرواق المفضي إلى الدكاكين. تقاربا قليلاً: «ستنتهي الترجمة»، قال الشاب النازلَ من سلالم السريانية إلى حقائق الختام. سيدوِّن بضعَ كلمات معصوبة الجباه بأرقام التواريخ، في ذيل آخر صفحة بالكردية من «المختصَر في حساب المجهول». شيء مّا، كالموت، سيفصِّل أسىً رقيقاً على مقاس خياله؛ أسىً كالحياة ذاتها التي يفصِّلها الموتُ بلا إتقان.

«لا»، ردت المرأةُ التي صُفِّي بياضُها ستَّ مرات في مجرى اللون إلى جلدها الحليبِ. توقفت: «لا. لن تنتهي الترجمة».

لم يشأ دلشاد تقليب كلماتها بين يدي وجوده المؤوِّل، بل قلَّبها، هيَ، كعرناس الذُّرة المشوي، يقضمها من كل نبض فيها بأسنان قلبه. تداركتْه في استغراقه الملتهم فكمَّمت فمَها بطرف خمارها، ثم ابتعدت بعدما شربته بعينيها صافياً جُلاَّباً مفوَّحاً بزهر القاقُلة. واكبتها في حركتها المقتطَفة من فَلَك النظائر الأحد عشر ـ نظائر السرِّ العاقل. لُمِستْ كتفهُ. التفتَ: «هوَ أنتَ؟». كان دينان بروار ينظر إلى أكيسا المبتعدة قبل الرجوع ببصره ـ الميزانِ إلى مقادير الصور في عيني دلشاد، الذي باغتته لمسةُ الرجل المدرَّب على ترويض المسكوكات. تَجاورا في مشيهما.

«ما الأحوال في دار الشحن؟»، ساءل دلشاد رفيقَه الكهل، فرد ذو الحذاء المدبب: «بُرادة

النحاس غدت علفاً للحمير. لا أفهم. مقطورة واحدة، لا غير، انفصلت من جسم قطار ملاطية. تدحرجت على سفح هضبة في مَرْعَشَ لتستقر فوق أغصان شجرتَيْ بندق ضخمتين. تسرَّبت برادة النحاس من خَصَاص الباب الحديد في خيطٍ على مزود حمير الدراويش من مِلَّةِ التُّوت. اختلطت البرادة بالعلف الجريش من بقايا قشور العرْفج». سكت برهةً. رفع راحتيه يستحضر الصلاةَ للدهشة: «رأوا ذلك بالتفصيل!!؟ من حمل الخبرَ إلى دار الشحن موثَّقاً بالمشاهدة على هذا النحو؟ الأسرار تنمو كالدعاميص في وادي قره صو، يا دلشاد». سكت ثانيةً. تباطأ متفحِّصاً حُصُراً زرقاء من جريد النخل: «مذ وصلت هذه الشجرة إلى كلاس احْتَمَلَ التينُ في ثمرته دماً». نقر بإصبعه على الحُصر المعروضة على حبل: «ما سيكون روثُ الحمير إذا اغتذتْ من برادة النحاس؟». معدن غير مُعْلَن على أساس صيرورته، بل على غَلَبة الصفة المُحَالة إلى حقائق الذهب المفقود. اذا دُفِنَ اخضرَّ متنقلاً بطبعه بين الفلزِّ والطُّحلب. وإذا طُرِقَ ارتعشَ. تمرَّد على الجوهر الذي اختُص به التبر واللُّجين فانحبَس في مرتبة الأعراض للزينة الخَلَّب. كانت له تسعة أسماء، تناقصت بالنسيان المُدبَّر المقصود حتى أضحت ثلاثةً: النحاس، والشَّبَه، والصُّفْر. «روثٌ شمسيٌّ. سيكون روثاً شمسياً تلتقط منه عصافير التين شرانقَ علوم النُّور»، قال دينان متنفِّساً من مسام لسانه: «محظوظون هؤلاء الدراويش في نواحي مَرْعَش. ألقوا عن كواهلهم مشقات التفكير وعناءه. مندهشون، لا غير. وجودهم هو أن يندهشوا. لا يقولون شيئاً، لا يقرأون شيئاً، لا يصغون إلى شيء أو أحد، ولا يريدون أن يصغي إليهم شيء أو أحد. حميرهم تتولى كل شيء، وها هي تتدبَّر صناعة مسكوكات من الروث النحاس». هزَّ رأسه يطرد ذبابة الحيرة من أمر البضاعة التي لم تصل. «استردَّ النُّور الذهبي جملةً من حماقته المعدنية»، تمتم دينان متعثِّرَ العقل بالتوريات المصنوعة على عجل. خاطرُ الدراويش، الذين أنفقوا خزائن غيبوبتهم على وصف النُّور بأسماء شرانق القزِّ، الْتَهَم ـ بنفاذه في رطوبة الخريف ـ خاطرَ دينان. ألهموه، من البرزخ العائم على مياه المُعْضِلات الزرقاء، أن ينسج توريات على عجل؛ أن يدحرجها على عجل؛ أن يمهِّد لها تراباً معافى في سيرورة عقله من نظام الإشكال إلى نظام اللسان الحَذِر من اللاَّإشكال. نَفْرَةٌ من أحوال فكره في النحاس إلى أحوال لغته في ارتدادها من التصريح بالسخرية إلى التمويه: بُرادة النحاس تسيل من المقطورة المنقلبة، المعلَّقة بأستار السماء النباتية، والدراويش مندهشون كما عرفتْهم الأرضُ هناك، مذ صوَّر لهم الشيخ بايزيد أنصاري، صاحب «حالنامه»، الكردي العارف بأنساب الجن في وادي قره صو، أن النُّور جسمٌ صلدٌ، كتيم، يحيط بنفْسِه العاقلة التي هي الموت، وغير العاقلة التي هي الزمنُ ـ الشكلُ المستتر في غلاف الخيال المحظور؛ جسمٌ صناعةٌ تتدبر تركيبه آلاتُ المصادفة والاتفاق المتهادنيْن، وليس الإنسان إلاَّ تاريخاً مُفْتَرَضاً ـ كتلةً تتحرك بالتأمُّل في التقاء الأنساق الصلبة، الجوهرية، المتعلقة بالنُّور وحده. وقد عمد دراويش مرعش إلى تعليق المصابيح في أعناق الحمير، كل ليل، لتتبع حركة الآلات المنكبَّة، بلا صخب أو صرير، على توليد القوالب اللانهائية للكثافة الشفيفة. غير أن الحمير الرمادية تلك ـ المنجذبة، بكسلٍ له خاصيَّةُ اللوعة، إلى استقراء الضرورات التي جعلت الحيوانَ فطرةً كمالاً ـ إعترضت قطارَ ملاطية، ذات

مساء اختلطت فيه الحظوظ الفجَّة بالناضجة، فانذعرَ سائقُها الفحَّام. أطلق النفيرَ محمولاً على عقل الدخان الحجري، متعوِّذاً بآلهة الشَّكل من رطانة النُّور المطحون على حواف الفراغ المُخْتَرَق بالسكة الحديد.

لم يكن في الحكاية تفصيل، بحسب ما رُوِيَ في دار الشحن لدينان، أبْعدُ من انفلات المقطورة الحاملة ذخيرةَ المسكوكات ـ البُرادةَ التي أغمي على ممكناتها، فانعطف بها مسافُها عن أن تكون نقوشاً صلدةً تتألق فيها الأنسابُ. ظلَّت بُرادةً عماءً تسرَّبت من كمين الحقائق المعدنية إلى علف الحمير. «روثٌ شمسيٌّ»، تمتم دينان من جديد. حدَّق في دلشاد: «منذ متى أنت في كلاس؟».

«منذ سنة وثمانية شهور»، ردَّ الشاب المتحيِّر في غنائم الترجمة.

«لم تر، بعدُ، أحداً من أبناء السيد مهران؟»، قال مروِّض المسكوكات، وأردف: «لم يحضر أحد منهم إلى كلاس منذ سنتين. لكنهم آتون قريباً. الأربعة معاً». توقف كأنما نسي شيئاً: «سأشتري قطاراً»، قال بلسان العِلْم المَرِح، واستدار عائداً إلى السوق. «إذا رأيتَ زوجتي، يا دلشاد، قُلْ لها إنني رحلتُ إلى ملاطية».

ابتسم دلشاد. علَّقَ الفكاهة المغسولة بطبع دينان الساخر إلى غمامة النسيان. دخل حانوت الخياط، وخرج بقفطان أخضر، في نَسْجه عروق متوازية حفرتْها براثنُ البياض بتقطُّعٍ خفيفٍ. ستة عشر يوماً انقضت في تفصيله بزَعْم نَصْرَتْ الدين، الذي أوَّل لدلشاد القماشَ حين اشتراه: «خذ الأخضرَ ـ شجرةَ الهَرْهَرْ السرمدية»، وتولَّى بإشارات الخيال الحقِّ تكويرَ المراتب على إهليلج الفَلَك الدائر في الغمام: المراتبِ الدَّراري المُحصَّنة بأزلية المعنى: «هذه العروق، في القماش، هي الأغصان المستقيمة لشجرة الهرهر، المنتشرة فوق بحر العماء، يا دلشاد»، قال نصرت الدين، مستعيراً من أنفاس العقل في رئتي ملَّته، القلقة في نَسَبها إلى دِيْنٍ واحدٍ بتمامه، انقلابَ الهواء إلى كتابٍ سِرٍّ، يقرؤه، من جيل إلى جيل، فرد واحد اختصَّ بتوليدِ البلبلةِ في المعاني، وتبديل مراتب الموجود بمراتب المفقود، ضمانةً يأمَنُ بها على الفراغ الجوهر من غدر أخيه المَلاء الجوهر. وبالطبع، أنزلَ الخياطُ نصرت الدين، على أغصان شجرة الهرهر السرمدية، طائراً هو الأول في كمال اللون ـ ذلك المسترسل، بضراوة، في نزوعه إلى حرية التصريف في شؤون كلِّ ظاهرٍ، مشهودٍ، مرئيٍّ، مُبْصَرٍ؛ لونٍ لا يُعقل شَكْلُ، أو كتلةٌ، أو كثافة، إلاَّ باستظهار عقله.

«الطاووسُ المَلَك»، قال الخياط، فوافقه دلشاد متأملاً قفطانه: «شجرة سرمدية، وطاووسُ مَلَك. وأنا في الأرجح، يا نصرت الدين، سأرتدي الفردوسَ». فتح ذراعيه يستقبل الطيورَ الملائكة على أغصان قلبه المنتشر كثيفاً فوق أنهار المفقودات. مشى يتفحَّص الحوانيتَ الأخرى على مهلٍ؛ حوانيتَ المتاعِ المتجاورةَ عقولاً تتدبَّر صناعة البيان الأرضيِّ المُعترف بنقصانه الخالد. خرج من سوق كلاس عبر بوَّابته المرصودة بنقوش التأويل: الميزان، والشمس، والسيف، والسنبلة. سرَّح بصرَه في حقل العشب المسحور يستقصي الشخوصَ ذاهبةً آيبةً بسلالها الملآى والفارغة. «أفي خزانة لسانكَ شيء من أشعار الأغاني؟»؛ جاءه صوتُها ـ صوتُ المرأة الشروق من بياضٍ نهمٍ. ابتسم للأزل البهلوان فابتسم له الأزلُ البهلوان. تفحَّصت أكيسا المكانَ من حولها، خارجةً من

كمينها خلف العمود الشرقي للبوابة. جاوزتْهُ، وألقت عليه، من وراءِ كتفها اليسرى، حفنةً من بزر اليقطين.

الفرسخ الثالث
(الكِيلُوْس)

جلست أكيسا على الأرض، فوق سترتها المقصبة، خارج بوابة البيت. نسمة باردة مسَّت بريشتها – ريشة الربيع المولود من صَدَفة الخمائر العاقلة – أجفانها المتقرِّحة فأطبقتها المرأة على دموع خرساء انزلقت بلا إنذار. مسحت عينيها بالمنديل المغموس في مسحوق اللاّزورد المغلي، ثم وضعت المنديل في حِجْرها. أخرجت الصُّرةَ الصغيرة، البرتقالية، من جيب قفطانها. فتحت الصرَّةَ عن حفنة من بزر اليقطين – ثمرةُ الممكن الجوفاء.

ألقت أكيسا خيالها، عبر أجفانها المتقرِّحة، على دار مهران. جسرٌ خشبٌ، بمساند من ليف مجدول حبالاً رطبة، يصل الضفتين، اللتين يتناظر منهما منزلها ومنزل أختها، بلسانَي العلو الواحد، واللون الأبيض الواحد، والنوافذ الست المبشَّرة بمآثر الشروق على بيتها، ومآثر المغيب على بيت نوفا جان سَيدا، زوجة الأمير ذي اللقب الأزرق. شعاعات شمس العصر، المطروقة على سندان الغيوم العالية، المتناثرة، انعكست بروقاً ناطقة على أجنحة سُرْمان الماء الحَجَليّ، العابر لَمْحاً بين قصب نهر نوهْ آثْ، يطارد بعضُه بعضاً بمراوح المنطق: حشرة من فصيل الزنبور، بلا خبث، عقَدَ لها الخيال الرطب المتصل بعقل النبات المائي شهوة الفلسفة في مناظرات الأحياء الناطقة بلسان الحركة ولسان السكون. تتبع الماء حيث يسيل أو يركد بأجنحةٍ جدالٍ، ولها أحوالٌ في اللون تتزلَّف بها إلى الظلالِ – الحُجبِ التي تُغلِقُ عليها أشعار الوجود المنسوبةً إلى الهواء الكتوم.

اقترب زوجُ سُرمان من أكيسا. رفرفا في حذر وابتعدا. قفز ضفدع من الضفة إلى الماء. تبعه آخر. تسلق دعسوقٌ حائر ثوبَ المرأة المعشبَ يريد النفاذ إلى الخلاء بين الورق فيردُّه السطحُ الكتيم، المستوي، للرسوم الكتيمة المستوية بلا عمقٍ أو خلاء. تساقط قشرُ بزرٍ من فم أكيسا على صدرها: كانت تضيِّق ما بين أجفانها، في ألم، كي تتمكن من حصر المكان الساكن، في الجهة الأخرى من الجسر. منذ ستة شهور، أو أكثر بقليل، أحسَّت حريقاً كمَسِّ الفلفل الحرِّيف في عينيها، فواظبت على وضع عصابة عليهما بعد تغطية كل عين برقائق من قشر القِثَّاء المُبَرَّد. انتفخت أجفانها. سَرَدَ العارفون بأحوال الأهوية، ومهابِّ الرياح الخفيفة والقوية، علومَهم في اتصال عوارض العين وعِلَلِها بالمجابهات بين الفصول، وإخلاءِ بعضها الهواءَ لبعض في الظاهر، مع توسيطٍ للحيلة يحفظ لذلك البعض ثغوراً في سلطان الفصل المعقودة له مشاغلُ الشمس. «تختلط الظلال العاجزة عن اللحاق بمثيلاتها، التي استولدها سَمْتُ الطبيعة في دورة الليل والنهار. ظلال باردة تعتنق ظلالاً دافئة. ظلال مكسورة تستنسخ ظلالاً صحيحة. ظلال ليِّنة تُقشِّر ظلالاً صلبة. ظلال فتيَّة تتوسد ظلالاً هرمة. ظلال ماجنة تغوي ظلالاً عفيفة. ظلال لا مرئية

تعتصر ظلالاً مرئية. ظلال رطبة تلتف على ظلال جافة. ظلال عجولة تقضم، في عبورها، ظلالاً متأنية. ظلال غاضبة تعصف بظلال سَمحةٍ. الظلال كالدجاج، يا أكيسا، يهرب بعضُه من مزرعة إلى أخرى. تختلط الظلال فتختلط حقائق البَدَن». ذلك ما قيل لها بلسان العَزاء المداهن. لكن ابنتها زَلْفُو البيضاء مثلها، أتتها بعَقْد من العلوم نَسَخَهُ لها الورّاق عاكف شهبان – ورّاق بلدة كلاس الأوحد – من خزائن الوشاية الأرضية بعقل العلَل إلى عقل الأدواء: كُتُب المخصوص المُحْتَكَر، الموقوفةِ على دُهاة تراكيب العُنْصر، المتدبرين فَكَّ جسوم المجهول الثلاثة بآلة الإستقصاء. زلفو لم تمهل أمها أن تستمر في تغطية عينيها بقشور القثاء، وغسلهما بماء نُقعَ فيه مسحوق اللازورد. تركت ابنتيها الصغيرتين في عهدة جدتهما، وزوجها ابن أخي دينان، لتشرف على بصر أمها من معقل قلب البنت المستوفية خصائصَ الشبه الأكمل: كانت كماءٍ انعكست عليه صورة أكيسا نفسها، التي ابتدعت تأويلاً مُسْتَظْرَفاً أوجبت به على نفسها أن لونَها، هي، يمنع اختمارَ الجنين في الرحم: الجنين لا ينضج. بياضُها بَرْدٌ لونٌ. شمس أحشائها مطوّقة بغمام كتيم. أنجبت بنتاً واحدة وهي في السنة الرابعة من زفافها إلى دينان. أكيسا في الخامسة والأربعين، وزلفو في الخامسة والعشرين. «أيُّنا البنتُ، وأيُّنا الأم؟»، تُسائل المرأةُ أترابَها استخفافاً بدورة الحمض الزمنيِّ في الخمائر. هي تعرف أن الزمن متبلبل قليلاً، ضعيف الحيلة أمام الشقاق الذي أحدثه اللونُ في عقل التخمين: أيهما الأم وأيهما البنت؟ بَشَرةٌ سطوعٌ زاغ منها بصرُ التقدير. لكن زلفو أطول من أكيسا، وأسرع لساناً: «هيِّي يا أمي. جئتك بالكمأ في فصل لا كمأ فيه». درج النطاسيون على توصيف الإثمِد، المنقوع في ماءٍ غُسل به الكمأ، لجلاء العين، ومنع الرسوبات فيها. هي ثمرة الرِّعدة: يختبل الظلامُ في جوف الأرض، أو يعوده مسُّ الصَّرَع فينزف عَرَقاً يتماسك – كما الهلامُ حول حصاةٍ في صَدَفة اللؤلؤ – كُراتٍ يتحيَّر فيها الطَّعْمُ أهي لحمٌ أم نبات، أم مزيجُهما. لا خلافَ بلغ بالتأوُّل في الأحوال مبلغَ قلَقه قَدْرَ نشأة الكمأ. وجودُهُ سببٌ مضطرب: تَحَصُّلُ ثمرته خَلْقاً من لا تلاقُحٍ أو بذرة. ذلك ما عَدمه إلاّ النفخُ العالِمُ في حمض الأوليَّة – الطين الصلصال، أو ما يقوم مقامه في خيال العقل المذعور. تجتمع الجواهرُ الفلكية والأعراض العناصرُ – جارياتُ العَدَم الأبكارُ – مصادفةً في برزخ المحنة، حين يعيا الوجود، في جداله، عن تدبير صورٍ للخيال الناطق – خيال الشكِّ الطليق الملجوم بالشكِّ المُرَوَّض؛ تجتمع الجواهر والأعراض مُمْتَثلة، بشهوة العصيان، للغدرِ بالله، فتستولد – من عَرَق الظلام – كُرَةَ الكمأة على مثال أختها كُرَة الكون.

لا جذور للكمأة تنتسب بها إلى الباطن. لا ورق تنتسب به إلى الظاهر. لا أثرَ تُصَنَّف به في حقائق البرهان المعقولة. يُسْتَدلُّ عليها بغيرها. لكنه استدلال لا يصير قانوناً إلاّ في موقع الشمِّ من الحيوان: مرة يجدون الكمأ في ظل شجر القَصيص الغريب، أو تحت سطحٍ نبتَ فوقه الشَّكَرذيون اليوناني ذو الورق الرفيع بلا سيقان، ومرة لا يجدونه. يذهب به ماءُ الرعد من مجهول إلى مجهول. بَيْدَ أن الكلب المدرب على رائحته يقتفي أثر المجهول إليه، ويُسمى صيد الكمأ بالكلب «علمَ الماء».

لم تقل زلفو لأمها من أين أتت بالكمأ تداوي به بصرها المحترق. جعلت الكمأ دقيقاً مطحوناً خلطتْ به الإثمد الذي تكتحل به أكيسا. «آه، قلبي»، كانت تردِّد المرأة على مسمع ابنتها كلما مرَّت ريشةُ الكحل بين أجفانها. قلبها الملجوم من أن يزحف إلى حدائق دلشاد غلبَ، بألمه، حريقَ عينيها. منذ شهر، قبل جلوسها ذلك العصر خارج بوابة البيت، لم تعد قادرة على اجتياز الجسر بلا معونة من زوجها، أو ابنتها. تهدَّل جلْدُها المشدود في لمحة عين. كانت مُدرَّبة، بصوت العاشقة فيها، أن تذوب غماماً يتنشَّقه الخفيُّ وحده في عبورها الجسرَ إلى بوابة الأمير ذي اللقب الأزرق، منسلَّة، من الممر لصق السور الجنوبي، إلى غرفة دلشاد – غرفة التاريخ المصقول بلا تدوين على الورق المصقول بقوة الأسطوانات الضاغطة، قرب خيال الأب الأول زازا إيڤاردر. وها هي لا تصل إلى عاشقها إلاّ في انعقاد حلقة الجُلَساء بدار الأمير، جالسة إلى جوار أختها، وخادمَيْ أختها الطورانيتين، وبعض الزائرات في المساء المُلَفَّق أبداً باستعراض العلوم المشدوهة على ألسنة الظُّرفاء: يختلس دلشاد النظرَ إليها ذائباً في صَدَفة السرِّ الملتهبة، وتذوب أكيسا من خيانة عينيها اللتين تُصَيِّران الشابَّ شبحاً تتقاسمه الظلالُ السميكة لمصابيح الزيت، فما يتبقّى لها غيرُ رماد صورة.

كان دأبُ مهران أن يقرأ على جلسائه، كل مساء، السطورَ التي ينجزها دلشاد من ترجمة «المختَصَر في حساب المجهول». دقائق، لا أكثر، هي تحصيل انقلاب الخيال السريانيِّ خيالاً كردياً. ذلك ما يقدر المترجم أن يعود به، نقياً في غربال يومه. دقائق قليلة من القراءة، ثم يسود الصمت المزبد في قِربة اللَّبَن – العقل. هم لا يفهمون شيئاً، في الأرجح، لكنها وساطة مُحتملة من الوقت، في الفاصل بين نشيد الغامض على لسان مهران وبين مرتبة الترويح عن لسان المتاهات بلسان الشُّكر للنوادر، والشكر لخفَّة العقول المضحكة – القصص المقذوفة من نوافذ الأمم إلى نوافذ الأمم يلتقطها الشُّطّار العميان، الذين يغزلونها على مغزل الأصباغ الأزلية، ثم ينسجون بها العُرْيَ – ثوب التسلية النُّور.

في الشهر الخامس من صاعقة المجهول، التي أوقدت النار في محجَريْ أكيسا، لم يعد مهران ذو اللقب الأزرق إلى قراءة شيء من كفاية الترجمة، وهي أشهر خمسة أدرك الجلساء فيها، على قدْر علومهم بظاهر اللسان البسيط، أن لفة الأوراق بين يديه قد انحسرت عنها شهواتُ المُحَيِّر، وكَبَسَت عليها شهواتُ الظرائف المقصودة، والسِّيَر المختصَرة، وغرائب الأمصار، والأحاديث المُسْتَمْلَحة بلا تزويق. «دلشاد سيرتاح قليلاً»، هكذا علَّل الأمير غيابَ قراءته المعهودة، عائداً بخيال لسانه إلى اليوم الذي أدرك فيه، بنفسه، أن السياق المعذَّب لانتقال الأنفاس بين سطور الترجمة تقوَّض بسردٍ مُلْغِز عن نشأة «عقول المعادن». كان ذلك قبل ستة شهور من بلوغ الحريق مرتبة تفتيت الصور في عيني أكيسا. قرأ، في مسائه ذاك، ما ينبغي أن يقرأه على مسامع الجلساء متخبطَ القلب. لكنه خرج في الصباح إلى الجسر ملتقّاً بعباءته السوداء، المذهَّبة الحاشية. أصغى إلى المياه قليلاً يسترد بخياله ودائعَ العنصر الذي يجمع نشأتيهما في خزائن المعلوم المُغلَق. سلَّم على النهر، فرد النهر التحية محمولةً على أنفاس القصب. نادى، من غير أن يجاوز

نهاية الجسر: «أكيسا اا»، وانتظر برهةً، يعرف من تخاطُر الخلايا الحية بعقل العَدَم الحيِّ أن صدى الإسم سيلتقط صوتَ الإسم، فانفتحت البوابة بصريرٍ سكران: «أناديتني يا زوج أختي؟».

«أكيسا»، قال ذو اللقب الأزرق. ألقى ببصره إلى الماء ريثما بلغت المرأةُ – البزوغُ طرفَ ظلِّه. «ما الذي قرأتُه البارحة لجلسائي؟».

أطرقتْ أكيسا، وعادت إلى إلقاء عينيها في مصبِّ عينيه صامتةً. نطق الشيخُ بفضول يفور من لسانه: «لا أظنكِ لقَّفتِ عقولاً للمعادن». اعتصرَها بقبضة حصاره اللامرئي، فلم تقاوم: «إنه دينان».

دارت الحقائقُ بكماءَ دائخةً في قلَك عِلْمِه بالحقائق. أرغى معدنُهُ – معدنُ الهيئة الآدمية: «دينان؟! ماذا جاء بدينان إلى...؟». تاه اللفظُ على لسانه محدّقاً إلى أكيسا.

«دينان يعرف»، قالت المرأةُ – البزوغُ من صَدَفة اللون.

«يعرف ماذا؟»، دمدم مهران إيقاردر.

«بالذي بيني وبين دلشاد»، قالت أكيسا.

كان دينان يحوِّم حول نفسه كنحلة ذات ليلة، بعد عودته من مجلسٍ لشُطَّار الحمَّامات، في بيت دفتردار الشحن زكي مجبور، المولع بالخط الديواني في تدبير المتاهات للمَضْبَطة التركية. مثاقيلُ حكاياتِ الخفَّة، التي وزنَ بها الشُّطار الأُلْعُباناتُ خيال اللسان الحاذق، بلبَلَت الميزانَ في عقل مروِّض المسكوكات المصقولة بغبار الخلود: كانوا يفصلون علومَ الجسد بتأويل الماء الساخن، والمشمومات الأفاويح المركبة من دهون النبات، وقشور الثمر، وغُدد الحيوان – مسك الغزال والسلَّور. «لا أعمار تنجو من غواية التبخير بأرواح اللطائف. لكل عمر تزويقٌ يعترض به الخيال على المقدور». توريياتٌ صقيلة واكبت ثرثرات الشُّطار في وصف حِيَل العشاق الخُلاّسين – الأزواج والزوجات، والخَدَم، والغلمان حمّالي المتاع من الحوانيت إلى البيوت، وجُلاّخ السكاكين الجوّالة، وصيّادي العقارب من سقوف المنازل بابتداع الأصوات الرُّقى. ثم رتّبوا الآثار في رمل المعقول: «لكل مظهر قِسْمَةٌ يُسْتَدَلُّ بها إلى شهوة، أو هوى. إذا أحبت المرأة ضاعفت الكحل مرتين في اليوم، وأبقت جلدَ عانتها جليّاً كراحة اليد».

نَقَشَ دينان الصُّورَ في خزانة عقله المرئيِّ الحافظ – عقلِ الاستدلال بالضوء على الظاهر. استعاد أكيسا، ببصر المعاني المحسوسة، من الواقع خيالاً، ومن الخيال واقعاً. طابقَ الظنونَ فانطبقت. أرغى كبدُه: «سأفتِّت الأشكالَ في محجريكِ. سأقشِّرُ حدقاتكِ الخمس عن بصلة البياض الأعمى – حدقتَيْ عينيك، وحدقة قلبك، وحدقة كبدك، وحدقة فرْجك، يا أكيسا». ظنونٌ رقيقة مسَّتْ عضلة الشُّبْهة فيه، من قبل، وهو يرى زوجته، من نافذة مشغل المصكوكات، تعبر الجسر مراراً، في اليوم الواحد، إلى بيت أختها. لكنه تخفَّف من المحتمل المسنون بذرائع النِّسَب حول أخدود قرةْ صُوْ الطويل: «النساء رمادٌ في الأربعين». ليكن أن تُضاعف أكيسا الكحل على عينيها. ليكن أن تظلَّ حليقة العانة بانتظام. ليكن أن تبخِّر خمارها بعصارة الماميران المغليَّة: «تلك هي مدافعةُ الأنثى عن حديقة فكرتها النضرة في المرآة»، هكذا سوَّغ مروِّضُ المسكوكات

لنفسه ما يحجب ظلَّ الشكّ عن السقوط على أثر ظلّه. لا. شُطار الحمّامات أعادوه إلى سِكّة فكرته – الشبح؛ الفكرة المتدحرجة ككُرة الشوك من الظن إلى الأحشاء: امرأته لا تغفل عن شعرة واحدة في موضع النَّتْف من الحاجب. نقوشُ الحنّاء على ظاهر يديها هي في الموقع ذاته من ألق اللون – نقوشٌ نبيذٌ من أرقام الحساب الكلي المفقودة. كل صباح تُنَقّي فمَها بمضغ صمغ المُصْطكى. بصرُها، في مجلس المساء بدار الأمير، على دلشاد. كيف أخذتْهُ الغفلة، إذاً؟ ما يصحُّ من التقدير في أمر عاشقة واحدة يصحُّ في أمور العاشقات جميعهن. اعتصر دينان ثديَ عقله الثامن – عقل الإطلاق: أيتبعها؟ يتبعها إلى أين؟ إلى بيت أختها؟. لو بَدَرَ من أكيسا ميلٌ يُريبُ لَلَجَمَها الأمير أو نُوْفاجانْ. هي في مرمى رقابة العجوزين السارحيْن، أبداً، في حدائق البيت المرئية والخفية، المستورة والظاهرة، المُعلَّقة إلى سماء الممكنات أو المرتكَزة على كثافة الحاصل: «لا يليق بك، يا دينان، أن تجرفك الشبهة إلى الإختلال»، قال مروض المسكوكات لنفسه الكادحة في تطويع معدن الصَّدمة. «إن كان في الأمر مجرَّد ميلٍ سأهددها بضَرَّة بكْرٍ هي، في حساب شيخ مثلي، نجاةُ البدن من محنة الجفاف البطيء. سأعذِّب خيال أكيسا ليلة بعد ليلة. سأسلخ النقوشَ عن ثيابها. سأقيد الصورَ في أحلام يقظتها وأحلام منامها. بطيئاً سيغدو نَفَسُك يا أكيسا. بطيئاً سيغدو نبضُك. ستتآكل المُتَعُ الصغيرة، المنثورة حولك كبصر الأرنب»، قال دينان، غير مُكْتفٍ بألفاظ انتقامه. تحرّى صوراً أكثر شقاءً يمتحن بها امرأته، ثم أقسَم قَسَمَ الوجود بالهباء – ثمرةِ الكُليِّ الناضجة أبداً: «وحقِّ الألم، لو بَدَرَتْ من قلبك، يا أكيسا، لفتةٌ، تخفى حتى على المَلاك الرقيب، إلى رجل آخر، سلبتُ من عينيك ودائعَ الله».

لم يكلف مروِّض المسكوكات نفسه التزام العلوم المأذونة في تدبير الاستقصاء، وقِيافة الأفعال، والتحرّي عن المكنون بالظاهر. داهَمَ امرأتَه في كمين الذهب – كمينِ قلبها المطابق عشَّ الخُطّاف: «ما الذي يعجبكِ فيه يا أكيسا؟».

كان السؤالُ الجليدُ في لا تحديده موجباً للحَدَر. شُلَّ خيالُ المرأة البزوغ. تفتَّت لسانُها، وتخلخل الهواء. تتبَّعته ببصرها منتقلاً، بحركةٍ تتلامس فيها البروجُ، إلى ركنه الأثير، حيث الكرسيُّ الثقيل، المُذهَّب المَسنديْن، برائحة قماشه المحشو إسفنجاً بحرياً ذا عقلُ مدرَّب على شواطئ إسطنبول. «اسمعي، أكيسا»، قال دينان مصغياً إلى الشقاء الرقيق، المُعْتَصَر في قَدَح الحيْلَة: «لن أثير عاصفةً في عمرنا هذا». حدَّق إليها متلاشيةً. «عندي ما أساومك عليه: ستنقلين خواطري إلى دلشاد يُقحمها في فقراتٍ من ترجمته، منذ الغد».

«خواطركَ عمَّ؟»، تمتمت المرأةُ البزوغ مهشَّمة اللسان والصوت.

«عن عقول المعادن»، قال مروِّض المسكوكات، فلم تفقه أكيسا شيئاً.

الأمير ذو اللقب الأزرق، الذي قرأ على جلسائه أنفاسَ السطور القَلِقة من محاججات المعادن للمعادن، ذات مساء، أحسَّ صريراً في قلبه. كان قد اعتاد، في الأشهر التي سبقت غزوةَ الحريق في حدقتَيْ عينَيْ أكيسا، أن يُملي على المرأة البزوغ قصصَه البسيطة كي تحملها إلى دلشاد، فيعيدها إليه دلشاد في غطاءٍ ينسبها إلى ترجمة «المختصَر في حساب المجهول»، فيقرأها مهران

لجلسائه المُستحسِنين طرائفَ الوجود البسيط. أكيسا لم تعرف، حتى ساعة جلوسها قبالةَ الجسر متصدِّعة البؤبوين، في الربيع الأعشى ذاك،كيف اهتدى الأمير إلى هواها المنتقل ككتيب ترعى به الريح، من حجابٍ إلى حجاب، مراعيَ دلشاد – جسَدهُ، وروحَهُ، ونشأةَ مادته وجوداً في الخيال الأزلي. هي سلكتِ الحذَر في عبورها اليومي من بوابة بيت أختها إلى غرفة الشاب النازل الصاعد سلالمَ الترجمة، من غير مبالغة في التحوُّط للفجاءات، مطمئنة قليلاً إلى الشرود الذهبيّ، الذي يوطِّد لعقلَيْ الزوجين الشيخين سلامَ الغفلة عن مجابهات الأرواح الصاخبة وراء الأستار الشفيفة لحدائقهما، وفي ممرات البيت. أما الخادمان أيْشَا وشَهْبَا، القائمتان على نظافة الدار والطهو، فهما، في الأرجح – تواطؤاً مع أكيسا، أو تغاضياً، أو جَهْلاً بالأمر – لم تكونا في عِداد حَذَرها.

في مساء آخر، قبل شهور من المساء الذي اعترتْ فيه قراءة الأمير للترجمة على جلسائه ما يُريبُ خيالَه، فاعترفت له أكيسا، من ثم، بما أقحم به دينان من إملاءاته عليها ليضيفها دلشاد إلى الترجمة؛ – في مساء آخر، اعترتْ السطورَ بين يدي مهران حُمّى النقلة الغريبة من سياق في أحوال الأعيان الغامضين، داخل «المختصر في حساب المجهول»، إلى سياق في أحوال الوشم بالنِّيْلج، وبالعصارة الخضراء في حشو الجراد، والمفاضلة بينهما. بدا التأليف ركيكاً، متعثراً، متقطعاً، موصولَ الخواطر عنوةً بلا تجانس. كتم ذو اللقب الأزرق ريبتَه المُثقلة باستيائه. كلَّم أكيسا، في الصباح التالي، من النهاية الغربية للجسر، بعد خروج زوجها إلى مشغل المسكوكات: «أكيسا. هلاّ استفسرتِ من دلشاد عن حكاية الوشم هذه؟»، قال، مخترقاً ببصره حقلَ القصب الأبيض على ضفاف عينيها. فوجئت المرأةُ البزوغ. ارتعشت عضلةُ الطير في روحها – روح السفح الجبلي: «لو يسأله جنابُكَ»، ردت مرتبكة. أطرقَ مهران. نقلَ بصرَه إلى النهر يستشير ماءَه فأشار الماءُ عليه بالسكوت. استثقلتْ أكيسا حالَ الجواب المحجوب. كلَّمَتْه:

– لماذا تخيَّرتني أن أسأل دلشاد؟

أعاد مهران بصَرهُ من الماء إليها رطباً. دار بلسانه، كعقرب الساعة، على محيط الكلام: «كوني حذرة، يا أكيسا. قد تعرف أختك نوفا ما أعرفه».

ذاب خيالُ أكيسا. مشاهدُ عبورها بوابة دار الأمير إلى غرفة دلشاد، لَمْحاً، تتالتْ مهشمةً في عيني قلبها: لا أحد ينجو مِن خذلان الحيلة، في برهة ما، على مرمى رقابة الآخر. غَلَبةُ الظاهر، في حقل أخيه المستور، هي غَلَبةُ غبار الطَّلع. نطقتْ أكيسا متلبِّسةً بهواء المكتوم المُعْلَن. نطق لسانُ اعترافها – اعتراف الماء: «أنا لفَّقت لدلشاد تلك الإضافة إلى الترجمة، يا زوج أختي»، قالت. حادتْ ببصرها عنه إلى رخام اللوعة اللامرئي: «كانت الترجمة ستنتهي».

مسَّتْ حالَ مهران، في برهته تلك، ريشةُ حال أكيسا، فرنَّ وتَرُ الأسى فيه من عقله إلى كبده: هي تستبقي دلشاد. تستظهره من خاطر الأنثى فيها سطوراً هي حكاية عودتها إلى كمال الفكرة المفقودة: الهوى وجوداً. الإستجارة بالهوى وجوداً. محاكاةُ الأرضيِّ للغيب المُستعاد أرضيّاً. البقاء في طور الثمرة بلا نهاية.

كانت أكيسا مقيمةً في عِلْم قلبها بالأزليّ. هكذا رآها ذو اللقب الأزرق، فحرَّضها على تلك

الإقامة بتأييده – تأييد العقد الذي لا يعرفه إلاّ قلبٌ موثوق: «ستدوم الترجمة. ستدوم ما دامت يدُ دلشاد قادرة على التدوين».

بسيطاً كان التدبير: أكيسا تحمل إلى الشاب ما يمليه عليها مهران، فيعيدها إليه الشابُّ بإنشاءٍ قريب من الترجمة، وفي ظنه أن أكيسا، الملتزمة كتمان المهمة، هي التي تختلق الطرائفَ الرقيقة، والنوادرَ المشاعة، وتزيِّن الأقاصيص الهانئة والملوَّعة برسوم الكلمات المتوسلة ألوان السحر الملجوم. فيما دأب ذو اللقب الأزرق على إرسال كل بضع صفحات إلى عاكف شهبان، ورّاق كلاس، يستنسخها له أربعاً بخط المُريد الحالم: إعادة الحرف العربيِّ صورةً في مُفْتَتَحِ الفقرة الكردية. ثم يرسل النُّسخ، في محفظة سائق القطار، إلى أولاده الأربعة، المستقلين بأشغالهم، كلٌّ في محطة من الأربع المتتالية من الاسكندرونة إلى ملاطية، هانئاً في رعاية خياله المنسوج سطوراً تؤيِّد أبوَّة شيخوخته بلا قيد. لكنه صُعق من اقتحام خيالٍ آخر في ابتكارٍ أوجبه على نفسه، واسْتَمْلَكه حَصْراً – خيال دينان بروار، مروض المسكوكات. عَدَّ الأمرَ هرطقةً: «كيف تجاسر هذا المخذول، يا أكيسا؟ سأقَشِّر بؤبؤيه. سأعيد بصرَهُ فوضىً: لا نورَ؛ لا ظلام».

حين أقامت فرقة «الكيْد» التترية دعائمَ الغناء الغريب، في دار صُوصُوكْ جُولْ، تنزَّل على عقل دينان خاطرٌ من شروق الحيلة: «سأُملي على أكيسا ما تمليه على دلشاد. سيكون لي في ما يترجمه عن السريانية موقعُ السطر التائه»، هكذا توعَّد الحقائق الكسولة، وتهدَّدَ الممكنات.

لا رباط، في الأرجح، بين فكرته، وبين إصغائه إلى عزيف الآلات بين أيدي أولئك الستة، المنتفخي الأجفان على عيونٍ جروحٍ مستطيلة المذاهب، تتفقَّد المستمعين بحثاً عمَّن لم يحضروا. هم اتخذوا اسم «الكيْد» من لفظ في القرآن، بحسب الترجمان التركي. لكنهم يكيدون لأصوات المهجورات المسكونة، والمسكونات المهجورة، بصناعة مثالٍ هو تلك الأصواتُ مجتمعةً في تناحر بلا انكسار أو انتصار: أصوات الريح، والماء، والسحاب، والعقل. كان مغنِّيهم ينتقل بحنجرته من مقام إلى مقام في النَّبر، بخليط من النَّفخ لا يشبه الغناء، وألفاظٍ هي تمامُ محاكاة اللسان لحركة الطبيعة وأنفاسها. أما صوت العقل، كما مهَّد الترجمان للنقلة بين المراتب بالتركية، فقد اجتمع في تمثيل خاصِّيَّته الطنبورُ، والقرعُ بالمِلعقة على اسطوانةٍ حديد، والنفخُ غرغرةً من اللَّهَاة: «صوت العقل هو الحجر الذي ينزلق تسع مرات على سطح الماء، في رمية واحدة»، قال ترجمان فرقة الطرب التترية، التي اصطحبت معها قِرَباً من لبن الخيل مخمَّرةً تدحرجُ الشاربَ على مدارج الرؤيا، من مُبتدإِ النشأة زمردةً في خاتم التيه إلى منتهى النشأة المُعْتَصَرة في قدَح التيه: «إشْربْ من هذا تكُنْ خيالَ حصان»، قال الترجمان لمروض المسكوكات عن لسان القارع بالمِلعقة على الأسطوانة الحديد. شرب دينان من طاسةٍ نحاسٍ دارت دورةَ الكمال القصيرة في المجلس. استعرضَ قلبُه الخازنُ على عَقله الخِزانةِ صورَ المعقولات المحتدمة: «أريد موقعَ السطر التائه يا أكيسا»، تمتم بلسان السماء المُتطبِّعة بطبائع الأرض.

لا يعرف دينان لماذا تجلى – من بصر علومه القلقة على بصر علومه المطمئنَّة – ذلك السياقُ الغامض من مكاشفات المعادن للمعاني. كان انتقاله بين خواص المواد يضعه، أبداً، في صورة

السؤال العادي عن ديمومة المسكوكات، التي تستولد، في خواطر الطالبين، حسابَ تاريخ العالم الصغير، والعالم الكبير، بأرقام من صناعة النَّسَب العائلي. موادُّ تدوم وأخرى تبلى. أحماض الطبيعة، الحاصلة عن اتفاق الأسرار الأثيرية، تهشِّم خيالَ الجماد الصلب فتتقوَّض خواصُّ الجماد، أو تجرِّحه فيغدو ضعيفَ المرتبة. ودينان، الحامل إلى زُبُنه برهانَ المعدن على أن المصادفات أناطت بها عقولاً على قدْر بقائها، أو زوالها، يريد برهةً لا يُنْتَهَك فيها خلودُ النقش المطبوع على مادّته: لقد كلَّم عناصرَ الخارصين بلسان مذاهب الليل – مذاهب الرهبة والرغبة؛ وكلَّم عناصرَ النحاس بلسان الأكيد المُعَذَّب – الأكيد الحالم أبداً بانعتاقه من قيدِ بقائه أكيداً؛ وكلَّم الزئبق بلسان الجزء الكُليِّ؛ وكلَّم القصديرَ بلسان الوميض المتَّصل بجذور المُعْضِل؛ وكلَّم الفضة بلسان الإستغاثة؛ وكلَّم الذهبَ بلسان المجهول المعصوم الذي يحتال به القِدَم في تصريف الوجود المنكوب: «هَبْني أيها الجمادُ فضيلة القَلَق الساخر»، قال لخياله المسكون، فوهبه الجمادُ قلَقَ الإنسان. دار على عقبيه في اتجاه ذاته المرتضَّة: «وعْدي أن أجرَّكِ معي إلى السطر التائه، يا أكيسا».

كانت حيرةُ أكيسا أشبه بشلل، حين سرد عليها زوجها دينان خواطرَ عقله التائه في مسالك المعدن. هو، نفسه، بدا متلعثم المنطق، قلقاً في الإنشاء، يحمل بَيْضَ الكلمات مكسورةً إلى أعشاش السطور المتوازية في خيال لسانه. حاجَجَتْهُ المرأة البزوغ بانكسار: «لا أفهم ما تقول. كيف أنقل ما لن أحفظه إلى دلشاد؟».

«فكِّري، معي، في طريقة نبسِّط بها ما في عقلي»، قال مروِّض المسكوكات.

«لا أفهم ما في عقلك، يا دينان»، ردت أكيسا.

«اخترعي معي شيئاً ما. أعينيني»، قال موبِّخاً.

«فلنفكر بحكاية صغيرة إذاً. أية حكاية تريدها»، ردت أكيسا.

«أريد المعادن أن تتحدثَ بلساني عن أحوالها، من عقلٍ لا هو لي ولا هو لجماد آخر غيرها. المعادن»، تمتم مروِّض المسكوكات، فأطرقت أكيسا. أحصتْ مجرَّاتِ اللامعلوم الثمانيَ والأربعين مستعينةً بأصابع يديها، وقدميها، وأصابع الخفيِّ الطويلة التي مسَّتْ أعشابَ عقلها. احتدمَ دينان: «ما بكِ ساكتة؟ فكِّري»، قال، فظلت المرأةُ البزوغُ في البرزخ، تتجاذبُ والوجودَ الصغيرَ وشاحَ المفقودات الصغيرة. رنَّ صوتُ زوجها من جديد: «أريد هذه المعادن أن تعترف باقتداري على إعادتها إلى صوابها، أو فلأسمَعْ جدالَها، يا أكيسا».

ظلت أكيسا في البرزخ. نقلت حصاةَ الوقت من مجرى الآثار الأرضية إلى مجرى الكيد السماوي.

غلى ماءُ الجوهر في خليَّة عَظْم دينان: «ما سُكوتكِ هذا؟ أتستخفِّين بي؟». رفعت إليه أكيسا نظرتَها الفارغة، فازداد غليانه: «اسمعي يا فاشلة الحقيقة، ويا فاشلة اللون. أنتِ استولدتِ فيَّ جرحَ الفكرة. خذي الجرحَ إلى دلشاد».

«خلق الله المعادن أولاً. فكرت المعادنُ، ثم تكلمتْ..»، هكذا بدأت أكيسا سردَ المخطوط الحتميِّ على دلشاد، الذي لم يطاوعه الحبر. رفع القلمَ عن تخوم البياض وحدق إلى المرأة البزوغ:

«ألا ينتبه مهران أننا نلفّق له، كل يوم، شيئاً مختلفاً من عظمه إلى لحمه؟»، قال الشاب الحامل متاع الترجمة المتوعكة. «فلنقُلْ إن الترجمة انتهت، يا أكيسا. سنتدبر لحكاية قلبيْنا ملاذاً آخر».

ارتعدت أكيسا. مالت عليه في مجلسهما على الأرض تحتضنه بيديْ ثدييها، ويدَيْ أحشائها، ويديها هي المُعْتَنقتين مذاهبَ اللوعة. تهدج صوتها: «كلما قلتَ هذه الكلمات أحسستُكَ تهدّدني». ارتعش كبد دلشاد: «لا..» قال، فسدَّتْ فمَه بصدرها. اعتصرتْ رأسَه: «ليكنْ. اقتُلني واذهبْ. اقتلني على النحو الذي تشاء. ضعْ سكيناً على نحري. اسكبْ عليَّ زيتاً مغلياً. اقطعْني شرائح رقيقة ووزِّعني على هذه الكتب، بين الصفحات. ألْقِ بي في النهر. ادفنِّي في طاحونة الملح. علِّقْني قِطعتين إلى شجر السِّدر، في مهبّ الريح على وادي قره صو كي أجفَّ. اعتصِرْني بين حَجَرَيْ رحى حتى أغدو هَريساً تملّط به جحور النمل في كلاس. استفرِغْ دمي من وريدي في الزير، واكتب به أشعار الخسارات إلى آخر رطوبة فيه. اسلخْ جلدي في القيظ يجتمع عليَّ الذبابُ الأزرق. مرِّغْني في حقل من أعشاش الدبابير. ادْفعني من حافة الدنيا إلى هاوية الـ...». تعثَّر لسانُها بدرَج خيالها. وضع دلشاد راحته على فمها، وهَمَّ بتقبيلها، فردَّتْه: «ثم ماذا إذا أخبرتَ مهران أن الترجمة انتهتْ؟ نتقابل، بعد ذلك، في البرية. تتنكَّر في جلد حمار قادم من بلدة سياسيل، وأتنكَّر في جلد أتان قادمة من كلاس. هاه. سنكون على ما يرام، يا ابن الـ...». تعثَّر لسانُها بحجر الغضب فتساقطت الكلماتُ واحدةً فوق رئة الأخرى. مدَّ دلشاد يده إلى غمامة شَعرها الحريق. تكلَّمَ: «أكيسا. ستُفْتَضَح لعبتُنا هذه». انتفضت أكيسا: «هل سمعتَ مهران يتذمر؟ ما بكَ أنتَ، إذاً؟ هو راضٍ، فارضَ. أمْ مَلَلْتَني؟»، قالت منكمشةً من فجاءة الفكرة. ضحك الشاب بصوت ملجوم. دفعته المرأةُ البزوغ بيديها الخانقتين فارتدَّ دلشاد بظهره على الوسادة. جلست أكيسا على حجره. قرصت خاصرتيه، وثَندُوَتَيْه، وجلد أضلاعه. عركتْهُ. لوته حيثما مكَّنها عضوُ فيه من الإلواء. عضَّته من أنفه، وكتفيه، عضته من فخذيه المرتعشتين من غزوها لحمَهُ، ثم التقطت متاعَ الذّكر فيه. توعَّدت الأرضَ في خصيته اليمنى، والسماءَ في اليسرى: «لن أبقي تراباً فيك لأنثى. لن أبقي ماءً فيك لأنثى. فلْيَكُن سلوقيُّكَ، هذا، قنوعاً بما اصطاد منِّي»، واعتصرت كَمَرَتَه بإصبعين، ففتح دلشاد فمَه، أخرسَ، من الألم، خوفَ أن يسمعهما أحد.

كان دلشاد، كلَّما أتته أكيسا بأحمال إضافاتها إلى ترجمة «المختصَر في حساب المجهول»، لا يلجم حنقه. يعارضها مستهزئاً. يتهدَّدَها أن السياق سيُفْتَضَح، وأن الشروخ بين أصل الترجمة وبين الإضافات الملفّقة لم تعد تخفى على نعجة. الأعيان الغامضون، الذين يسردون على مؤلِّف «المختصَر» جرجيس لوقا سالوحي، سِيَر ملائكة بلا مهمات، يتعثرون بأكياس الإثمِد، ونيْرَنْجَات أحبار الوشم في قصص أكيسا. تتمرغ علومُهم في طرائف حكايات مهران، وتلتهمهم السويداءُ وهم يسمعون صلصلة معادن دينان بين سَنَن العقول التي يستخرجون بها ميلادَ الدورة الإلهية في الأرقام.

لطالما فاتحتهُ أكيسا أنها لا تفقه شيئاً مما يقرؤه الأمير، في مساءاته، من الترجمة. وهو الأمر

الذي كان دلشاد يكبسها به: «كيف يحدث، إذاً، أن ما لم يكن مفهوماً لك وللجلساء يصير مفهوماً حتى للهرة في دار مهران؟». يشد شاربه بأصابعه مختنقَ الغضب، ثم يلين، ثم يدوِّن ما يعرضه عليه خيالُ المرأة البزوغ متمهِّلاً: «مفهوم. وأكثر من مفهوم. بسيط، لا يحتاج أحد إلى الإصغاء كي يفهم هذا يا أكيسا. إنني أسمع عظام جرجيس سالوحي تشتمني»، يقول الشاب الصاعد سلالم الترجمة المنكوبة، منصرفاً بعد غضبه العابر إلى إنشاء التلفيقات إنشاءاً يليق، قليلاً، بخيال مهران القارئ، من غير أن يخفي تذمره: «لكِ مخالب عقل العقعق. مخالب تفكر أولاً، ثم منقار يفكر، ثم معدة تفكر، ثم ذَرْقٌ هو خلاصة سيرة الطعام».

«لم أفهم»، تقول المرأة البزوغ.

«أنا، نَفْسي، لا أجد مَخْرجاً لهذا المثال. لكنه يشبه الحال التي تنتقلين بها من الوشم والكحل إلى حِيَل الجزَّارين في حَقْن اللحم بالماء، والعبور من كل هذا إلى طلَّسمات المعادن. كيف، بالله، جمعتِ حمْلَكِ من الغرائب؟ أم أنني لم أفطن إلى علومك، يا هِبَة الغيب؟»، يقول دلشاد، فتقتحمه أكيسا بمداعباتها الجسورة: «لحمك هبةُ الغيب. سآكل بعض أعضائك نيئاً، ذات يوم، وبعضها الآخر مطبوخاً بالمشمس المجفَّف».

حتى اليوم الذي جلست أكيسا فيه قبالة الجسر متقرِّحة الأجفان، كليلة البؤبؤين، لم تنبس بشفة لدلشاد عن تدخل مهران، أو زوجها، في تلفيق الإضافات. أبقته في هواء يقينه الذي يتنفَّسه من هبوبها هي عليه: يدوِّن ما يظن أنه اجتهادُ لسانها في تدبير العلوم الصغيرة، وابتكار الملذات العفيفة للأسماع. لكنها منكوبة البصر، تستجدي من خيالها المتقرِّح ترسيماتٍ تكمل لها مشهَد الجسر متصلاً ببيت أختها – البيتِ الصَّدَفة التي استقرت في ركن منها لؤلؤةُ لوعتها: «آخ دلشاد. أتُراني أسَأْتُ إلى الله؟».

الكثير من الهندباء البرية تناثر في كل أنحاء بيت أكيسا، مذ قيل لها إن لبن سيقانها يجلو بياض العين. الهندباء الخشنة الأوراق، المتضرِّعة – أبداً – إلى التماثيل اللامرئية، لم تُنجد أكيسا. بَيْضُ دجاج، كثيرٌ، اختلط بدهن الورد المعجون، ثم طُلِيَتْ به أجفانها، أربع مرات في اليوم الواحد. بَيْضُ الحمام، والعصافير، والسنونو، والحجل الجبلي، والهدهد، واللقلق، عُجِنَ كلُّه بمسحوق حجر السَّبَج الهندي، واتُّخِذَ كمادات لعينيها. تأوَّل لهما قيَّافو المستورات الذهبية حقائقَ الزُّلال والصَّفار في البيض: «الخُيلاء، والقلق»، كلاهما لونٌ يقدر على إحالة الفراغ والمَلاَء إلى جنسِ حركةٍ؛ والحركةُ تطرد الأورام من الأعين، ومحيطها. أما حجر السَّبج الهندي فهو حافظ المهاراتِ في كتلته – مهارات الماء الراكد، المقتدر على ابتكار خميرته الخالقة عقلَ المحظور؛ والمرايا التي تُتَّخذ منه، بعد صقله، توسِّع حدقتيْ الناظر إلى عينيه فيها، وتجلو الصوَر. أما قيَّافو ممكنات المجهول الذهبية فتأوَّلوا خزائن الحيوان: زبْلُ الضبّ – الشريد المتمرد على ضرورة الماء – ينفع، إذا اكتُحلَ به مختلَطاً بعصارة بصل الفأر، من انقلاب رطوبة العين إلى نزيف مائيٍّ يصير غشاءً، مثله مثل مرارة العُقاب، مدرِّب المنحدرات الجبلية على الطيران في ظله. وأكد رُسُل هؤلاء القيافين أنهم شهود على أن من أداموا النظر إلى حُمُر الوحش لم تلحق بالصور، في مراقي أبصارهم، غشاوةٌ أو لَبْس: «حمار الوحش حرف أول في خُطاطة البيان الأعجم، المنسوب إلى

أنبياء الحيوان». أما مرارة الظبي، إن نُقع فيها عودُ المكحلة، فهي ردغٌ لقروح الأجفان، وتحوُّطٌ من عين الشر الحاسدة عينَ المحسود: «الظبي بؤبؤ الطبيعة في حدقة الخفيِّ المحسوس». وفي السياق المُنْتَدَب من علوم الظاهر القوية سُمِّيتْ مرارةُ القَبَج، أيضاً، بأسماء التحصيل: «طيرٌ له قَدَمٌ في الشَّرَك وقدم في النجاة. يرى إلى عقل الحيلة بعينَي العناصر الأربعة». كما ذُكِرتْ مرارةُ سمكة الشبوط – سمكة النهر المغلوبة بوساوس القِدَم.

لم تترك أكيسا من الأدوية ما وُصِفَ لعينيها وما لم يوصف. اعتمدتْ نباتَ النهار مرجعاً، ونباتَ الليل. اعتمدت المُجرَّبَ من جوارح الحيوان الداخلة في كيمياء الجواهر العارضة، وغيرَ المجرَّب. نقَّلت بصرَ يأسها في حدائق الكثافات المنسيّة على تخوم العلوم الكبيرة: عصارة زهرة الماميثا. عصارة الكافور. قطران شجرة العرعر. نشاء القمح. ماء المردكوش. ذَرُوْر إقليمياء الفضة والنحاس. شراب القراصيا. مرق قانصة الحبارى. دقيقُ حجر الفيروزج. الكراث الجبلي المطحون مع العسل. محلول البُوْرَق. عصارة القرع. ندى القصب. الكزبرةُ مخلوطة مع حليب امرأة، ومثلُ الكزبرة الزعفرانُ. فُتاتُ الشاذَنج المسمى حَجَر الدم. عصارة الفَيْجَن البستاني المخفَّفة بالأخلاط المُرَطِّبة. مرق العدس المطبوخ بشحم الجمل. ندى زهرة الغَرَب. رماد القمر، وأنفاس الجن. نعم. وضعوا ريشة من ذيل طائر الغُداف – مؤنس البراكين الخامدة – في صحن من خزف أسلاف الروم البائدة. تركوا الصحن في خزانةٍ ذات نوافذ زجاج مغلقة لا مدخل للهواء إلى جوفها، وترقبوا – بتعاقب المتناوبين على سهر النهار وسهر الليل – أن تتحرك الريشة، أو تنقلب على جنب، فانقلبت الريشةُ بعلْم الكمال العالِم. امتصوا هواءَ جوف الخزانة بعيدان القصب، عبر الأفواه، وأفرغوه في حواصل أربعة من فراخ الدجاج، ثم علقوا الحواصل إلى طوق قماشٍ أحاطت به أكيسا رأسها، فوق الخمار: كلما جفتْ حوصلةٌ انفجرتْ بما فيها من أنفاس الجن، فتفتح المرأةُ البزوغ عينيها على وسعهما، مستطلعةً، في الغمام الممسك بلجام الأشكال، شروقَ البصر، من جديد، على وقائع خيالها المفقود.

العناصر اللامعدودة، التي تمازجت في أخلاط الأدوية، أهدت إلى أكيسا ذاكرةً لا تنقلب على الجسد الحيِّ في استحالته جماداً بآلة الموت: ذاكرةَ الإستدلال بالخلود على اللوعة كلانهايةٍ. وهو أمر لا يحوجه تفصيل، لا من العقل البسيط ولا من المتراكب. الجسد يشرق على أحواله في ألمٍ طاهر. العنصرُ ألمٌ في خاصيَّته؛ ألمٌ جوهرٌ هو ما سَكَن المادةَ منذ نشوء التحصيل الدوريِّ للآهوية – نشوءِ الخوف. أكيسا تعاقبت على استدراج نَفْسها إلى خيال كل مادة اتَّخذتها دواءً: الألياف في النبات، والمعادن في الجمادات المطحونة، والكيموس في الدم. كانت تنعقد وتلتفُّ على أعماقها كحبلٍ، وتتجمد كصمغ الحجر، وتسيل كالمصْل: ثلاث خواصٍّ هي ما تعرَّف بها الأزلُ الخالق على اللاّمتقيِّد، اللاّمُشَاكل، اللامُستَدل، اللامتعيِّن، اللامنتهي، اللاموصوف، اللامُقارَب، اللاّمنتسَب، اللاحصول، اللاعقل، فاستحدَثَ المتاهة، وزخرفَ مسالكَ التيه بصور السرِّ – صور العِقاب الأرضيِّ الواضح، والثواب السماوي المُبهَم.

طغى خريرُ جريان الماء في نهر نوه آث، قليلاً، على ثرثرات التدبير الملجوم في خيال أكيسا، الجالسة على بُعد رميةٍ من قلبها إلى قلب دلشاد – رميةِ الحريق الحجري. مسحت بكمِّها شفتيها

المملَّحتين من نشوة انفلاق بزر اليقطين بينهما. نهضت مستنشقةً هبوبَ الهواء عليها من بستان الطبائع المتناظرة. خلعت خفَّيها الجلديين الأخضرين، ومشت إلى سياج القصب الطريّ، النابت جدالاً أخضرَ في عقل الضفة. تبلّلت قدماها بللاً معدنياً باردَ الجوهر، تاركتين في الطين خَتْمَي أثريهما. تنهَّد دمها. انزلقت أكثر، بجسدها، عن حافة سرير الهواء الوثير إلى رخام الماء الصلب. انغمرت سُرَّتُها – موقعُ التأويل المُجسَّمُ في لوح الله. «الماء الذي يلمسني منك، الآن، هو من منبع غُولا جَارْسِدْ أيها النهر»، تمتمت أكيسا.

سبعة عشر ينبوعاً هي الجوارح الأسس في هيكل نهر نوهْ آف. ثمانية من أسافل هضاب مَرْعش، وتسعة من منحدرات أمانوس، تختفي تحت قشرة الأرض تسعين فرسخاً قبل انبجاسها في نواحي كلاس. واحد منها يقع في آخر الصف المستقيم من شجيرات الورد الأصفر، المنحدرة من بوابة دير الكلدان المهجور. أربعمائة شجيرة. سُمِّي النبعُ باسم الشجيرة الأخيرة منها. الحجر الذي تظلله حجرٌ أصفرُ – لونُ خزانة الريح، بحسب «ملَّة البابونج»، أو لون صَدَفة الهواء في نضوج لؤلؤته، قبل الظهيرة التي شهدت مولد الفردوس، في سياق اليوم التمهيدِ، الذي ارتجله الله لصناعة الزمن الموثَّق بالخوف من الزمنيِّ.

«غولا جارسِدْ» – الوردة الأربعمائة. أكيسا خاطبت الماءَ القادمَ من النبع هناك: إنه خفيف، يتفرَّق قَطْرُه عن الجسد كأنما يلامس الزيتَ. خِرءُ الضفادع فيه كثيف أكثر من غيره، يتسلسل جارياً كسُبَّحة من نوى الزيتون ينتظمه خيطٌ زبدٌ. أما عبوره في دغل الشِّيْح – نبات الأنفاس، وخروجه، من ثمَّ، إلى سهل اللاّذَن، قبل اتصاله بأشقائه الينابيع، فهو ما ورَّثه طبعَ الإصغاء إلى عبور الخفيِّين من حَمَلة الجسور المائية إلى البرازخ: في كل موضع يخفت فيه جريانه، على الناس أن تسكت هيبةً.

كل نبع غمس فرشاته في لون من ألوان الحقائق: أُعيد تلوينُ أكيسا صورةً في الكثيبِ المسحور – كثيبِ الوجود الزاحف من خزانة العِلَل النفيسة إلى خزانة المُطلَق المقيَّد بالمهجور المسكَون. جمع الماءُ بذورَ خياله، من بساتين الثلوج في طوروس إلى بساتين المغيب عند السفوح الجنوبية للأناضول، ونثرها على خيال أكيسا.

تنفَّست أكيسا.

تنفس عقلُ البرهة، التي اختارها الله من ماءٍ ليتدبَّر انقلابَه الناطقَ على الأزليِّ العتيق الأخرس.

خاضت أكيسا، أعمقَ، في مجرى النهر. بلغ الزبدُ المدغدغُ عنقَها، فاتضحت السطورُ الشفيفةُ على لوح المجهول المعترف بتقصيره عن خدمة المعلوم – أبيه المتكتِّم على خصائص الغيب.

غاصت أكيسا أكثر. لمس الماءُ شفتَها السفلى بسطحه. نطق البياضُ المستور – البياضُ الذي انحدر منه ماء النهر. علومُ الثلوج، المجتهدةِ في حفظ محاورات الأعالي، انبسطت روائحَ تحت أنف المرأة البزوغ: روائح ظلالٍ، وكهوفٍ، ورياحٍ، وأشكال منقسمة على نَفْسها في اتخاذ القرار بالانتساب إلى الأشكال. روائح بياضٍ ناطقٍ أفشى للحدائق المفقودة بأسماء الأنهار في حدائق الله، حيث العدمُ المنشرحُ متراخٍ في زحافته التي يجرُّها كلبُهُ الوجود.

من ثلوج الربيع الذائبة نسج نهر نوهْ آقْ خماراً لأكيسا فوق خمارها. أوصد عليها خزانتَه – حين نزلت درجةَ جسدها الأخيرة إليه – وأغلق القفلَ بمفتاح الكمال.

ترقرقت دموعٌ في عينيِّ الماء. بضع فقاعات شقت طريقَها إلى السطح بنشيدها الخافت، وطفتْ على الرقراقِ المتماوج حفنةٌ من بزر اليقطين تراخت عنها يدُ أكيسا.

" دلشاد ، فراسخ الخلود المهجورة " لسليم بركات :
حكاية لوعة غارقة في جمالية اللغة !

دمشق ـ ابراهيم حاج عبدي

لا يمل سليم بركات في كتابته من التجوال في تضاريس أرض لم تمنح لساكنيها الكرد سوى الخيبة و الألم فكان تاريخا تراجيديا تنتهي فصوله دائما إلى العدم و هو مشرع أبدا على مجهول مخيف ،بين هذا و ذاك يجتهد الشاعر و الروائي الكردي في تدوين الفجيعة المنبثقة من تلك البقاع رغم كونه لم يعش فيها سوى سنوات طفولته و صباه معترفا في أحد حواراته " أقر بأنني لا أعرف شيئاً يدعى منفى لأنني لم أكن، في يوم ما، أملك ما هو نقيض المنفى " ليبقى ما هو مؤكد بالنسبة له " أن لوالدي قبراً على تخوم مدينة القامشلي: هذا هو أنا " كما يقول .

بيد أن اختزال سليم بركات مرابع الطفولة و الصبا بهذه الصورة المجازية لا يمكن أن يقنع قارئه فهو لم يشأ يوما أن يفارق بيئته الأولى التي أثبت بأنه نهل من ألوانها و روائحها و طبائعها و طقوسها و مكائدها و لغتها حتى

الثمالة لتستقر عميقا في ثنايا الذاكرة المتدفقة و الخصبة ، دون شك، فرغم مغادرته لهذه الأرض باكرا إلى بيروت أولا ثم قبرص فالسويد (حيث يقيم الآن) إلا أنه بقي منجذبا إلى ذلك العالم الصغير البسيط يفتش في متاهاته عن خرزه الملون و يصغي إلى أغاني الرعاة ،و يصطاد القبرات في السهول ،و يسطو على أعشاش الطير و يراقب صراع الديكة مشيدا لنفسه في غربته البعيدة منزلا من الحنين و اللهفة في تلك البراري الفسيحة و المحرضة على الخيال ـ كما تظهر كتابته ـ يهدم ، ويفكك ،و يلغي ليبني على الأنقاض مدونا بذلك أسطورته الخاصة في عالم الكتابة و دنيا المنافي طالما أن الوطن الوحيد المتاح هو الكتابة " فمن لم يعد له وطن تغدو الكتابة بالنسبة إليه مكانا للعيش " كما يعبر جوزيف كونراد الذي لعب دورا مماثلا بشروط و تقنيات و سياقات مختلفة .

و هو إذ يقوم ببناء هذا الوطن الافتراضي بالسرد فانه يتوسل في ذلك لغة عربية صافية جزلة و محكمة أدهشت الكثيرين من الكتاب العرب الذين تساءلوا في سرهم : أنى لكردي لم يعرف حرفا من العربية حتى السادسة (سنة دخوله المدرسة) أن يطوع اللغة العربية بهذا القدر من الرشاقة و المهارة و العمق حتى غدت هذه (أي اللغة) لا الحكاية هاجسه الأوحد في الكتابة ؟. ربما كانت اللغة قد شكلت ، في مرحلة مبكرة ، تحديا و امتحانا لطفل أهانته هذه اللغة في طفولته الغضة حين خرج من كنف الأسرة الكردية المقيمة في الجزيرة السورية و دخل المدرسة فسمع رطانة عصية على الفهم و النطق و الدلالة ، فلم يقدر ـ هو الطفل ـ أن يستوعب هذا الانقلاب اللغوي و لم يستطع إدراك ما يجري من نكران للغة الأم ! شعر كأترابه من أطفال الكرد أن ثمة حيلة ينبغي عليه الحذر من الوقوع في

شراكها ،فاقتحم ـ بمقاييس طفولته الكردية البكماء ـ الأسوار العالية لهذه اللغة مقتنصا أسرارها و جمالياتها و ألوانها و مجازاتها و موسيقاها و سلاستها تماما كما يقتنص القطا المزركشة يعتني بها و يتباهى في تلك الأنحاء المنذورة "للطيش و الهباء" بتعابير الكاتب .

و رغم إيغاله البعيد في الإمساك بلآلئ هذه اللغة إلا انه ظل يمتح من نسغها و جذورها الأكثر عمقا حتى تجاوز الأمر حدود الأداة أو الحامل لقصيدة يكتبها أو لحكاية يقصها لتطال محتوى الحكاية ذاتها كما في روايته " دلشاد ،فراسخ الخلود المهجورة " الصادرة أخيرا عن المؤسسة العربية للدراسات و النشر (بيروت ـ ٢٠٠٣) و التي نتبين فيها تنويعات على هواجس اللغة و شراكها و الترجمة و أحابيلها لكنها و بنفس الوقت " قصة لوعة و ،وقيعة ،و خيانة مغتفرة ، و إعادة ترتيب لتاريخ مجهول " كما يقول الغلاف الأخير للرواية.

في هذه الرواية ثمة حيوات غامضة و مصائر موجعة و شخصيات غارقة في مآزقها لا تني تبحث عن معنى لوجودها ، إنها ثمانية فراسخ تمتد في الزمن اكثر من نصف قرن يسلكها سليم بركات للوصول إلى روح الكردي التائهة في الجهات و الأمكنة لتشكيلها من جديد حيث يرسل الأمير مهران ايفاردر في طلب دلشاد شاهنور ليترجم له الكتاب السرياني " المختصر في حساب المجهول " لمؤلفه جرجيس لوقا سالوحي إلى الكردية و حين يستغرب دلشاد الأمر على اعتبار انه لا يتقن السريانية يصر الأمير: " أريد كرديا يعيد المعاني تائهة مثله " فيرد دلشاد :لست تائها، ربما أخذلك ، فيؤكد الأمير " كل كردي موعود في قسمة من حياته بجهة تائهة " .

و هكذا تبدأ الطقوس لتعلم دلشاد السريانية حيث يسأله المعلم السرياني قاديشا " ماذا ألهمك يا دلشاد أن تقصدني لتعلم السريانية ؟ " يرد مستغربا : " المعذرة يا سيد قاديشا لو ساءلتك لماذا تعلمت التركية و الكردية و العربية و الفارسية و اليونانية " فيرد قاديشا " أحببت تقبيل الدنيا بأكثر من فم " ليمضي دلشاد في تعلم كيفية تقبيل الدنيا بفم سرياني " كانت شمس الربيع الموشومة برقى الفلك الرابع ـ فلك الخصائص الأزلية منعكسة في الهزيع الأول لمغيبها على الجدول الصغير الذي لم يترسب من دم الديكة الثلاثة حين غمس دلشاد ريشة قلمه المثقوبة في سائل الحياة و دوّن تاريخ قدومه إلى كوماجينا على صفحة من دفتره المجلد بلوحين رقيقين من قشر البلوط المضغوط بعد نقعه في لبن الخيل ". ثلاثة آلاف بيت من الشعر لإسحق الأنطاكي ألقيت على مسامع دلشاد الذي تلقى من جرجو قاديشا ـ خلال أكثر من سنة ـ أنباء حروب المعاني و حصار التوريات للتوريات و أحابيل الحروف ...و هزائم المفردات أو غدر بعضها ببعض " و قد كانت الشمس ذاتها ـ شمس الربيع المختمرة في حقول الهندباء و النارديين هي المنعكسة في الهزيع الأول من الصباح على بركة دم الديك الرومي المذبوح على عتبة باب مكتبة كوماجينا حين غمس دلشاد ريشة قلمه ليدون يوم رحيله ..." .

بهذه اللغة المنحوتة نحتا و المستمدة من مسالكها الوعرة ـ الرقيقة يسرد سليم بركات بضمير الغائب حكاية دلشاد مع الترجمة حيث يصعد سلالمها ليضع بين يدي الأمير ورقات الترجمة فيقرأها على جلسائه في بلدته كلاس لتبدأ المماحكات و التوريات و التحويرات و التأويلات . يعمل دلشاد في الترجمة أعواما يعشق خلالها أكيسا زوجة دينان مروض المسكوكات في

البلدة و التي تنتحر في نهر (نو آف) بهذه الصورة : " من ثلوج الربيع الذائبة نسج نو آف خمارا لأكيسا فوق خمارها (...) ترقرقت دموع في عين الماء . بضع فقاعات شقت طريقها إلى السطح بنشيدها الخافت ، و طفت على الرقراق المتماوج حفنة من بزر اليقطين تراخت عنها يد أكيسا " ، فيتزوج دلشاد بتدبير من الأمير ابنة المرأة المنتحرة زلفو " المحاصرة بلون أمها " الأبيض التي تنجب له ابنة وحيدة هي زوزان إلى جانب ابنتيها دنيا و سافيناز من زوجها السابق الذي طلقها بتهديد ملغز من الأمير.

و حين تنتهي الترجمة و يموت الأمير مهران تبدأ رحلة الأسرة من بلدة كلاس إلى أورفا فإلى ماردين ثم نصيبين " المسرح السهل لعبور البغال بالآدميين و تواريخهم عبر أدغال العليق و الحور جنوبا " باتجاه الجزيرة السورية حيث " كان الحذر على تمامه من أي شيء يتصل بالكرد، بخيالهم او لغتهم ،او أخبار أرواحهم . اسم (الملا مصطفى) البرزاني ،المتسرب من رياح الجبال إلى السهول المتنسّكة و هي تردد أسماء الأنهار الجليلة ،أقلق الحكومات بداعي يقظة الشر في ملة من أهل المكان لا يجدر بهم زعم امتلاك المكان او التشارك فيه مع عرق الأمة الوافدة بشفاعة الفتوح ،القمرية و الشمسية ، من مصبات الرمال في الصحارى العريقة " .

تستقر أسرة دلشاد في مدينة القامشلي على الحدود التركية ـ السورية فيعمل دلشاد في تجارة الأغنام و يتعرض تعب السنوات في مجلداته الاثنين و الخمسين لطلقة من مخبر لم يفهم ما فيها فجرب مسدسه الجديد في أغلفتها و أوراقها ليكسب معرفة مدى قوة مسدسه ،و هنا تكمن اللوعة كما أشار الغلاف الأخير او هكذا ينتهي دوما القدر الكردي بفاجعة غير متوقعة فبعد أن يخبرنا السارد بمشقة العمل الذي يقوم به دلشاد و يشرع باب الأمل و

يشعرنا بألفة تجاه هذا الكتاب قيد الترجمة نسمع و في الصفحات الأخيرة صوت رصاص طائش يخترق عذاب السنوات و صبرها ، و يتخذ سليم بركات من هذا المكان الجديد ، الذي سكنته أسرة دلشاد ،ذريعة لتصفية الحساب فيتحدث عن الإحصاء الذي جرى في أوائل الستينات و فقد بموجبه حوالي مئتي ألف كردي جنسيتهم السورية بحجة انهم مهاجرون من تركيا و إلى الآن يعرفون بـ " الأجانب " ، وكان ذلك الإجراء " محاولة لما ينبغي أن يكون عليه المكان : لا أثر لخطوات الكرد على الزمن فيه " أما من قدر له أن يخرج من هذا المصير (منتصرا) فكان عليه أن يكون عربيا : "محظوظين كانوا أولئك الذين طهرهم التسامح ، بعد نقل بذور نشآتهم من حقول اللوعة الكردية إلى السطر الأخير في نشيد التصنيف العارم : الأصل : عربي ".

لا يمكن للقارئ المجازفة باستخلاص حكاية بعينها او مقولة محددة من الرواية و هذه ربما غدت هوية تسم مجمل أعمال سليم بركات فهي قبل أن تكون جوابا، سؤال حائر يهرب منه الكاتب بالغرق في لغة تدون تناقضاته و مفارقاته و مشاكساته لتختلط على القارئ الواقع بالمتخيل و الحقيقة بالوهم و الماضي بالحاضر ، و الغرائبي بالمألوف فتغدو الكتابة ،بهذا المعنى ،ضربا من التمويه أو التخفي لما ينبغي إظهاره و تجليه و كأن الكاتب ينكفئ على ذاته التي لا تبوح إلا بالقليل فيما القارئ يلهث وراء هذا السراب اللغوي الفاتن و أساليب السرد المغوي.

و يمكن ،بل يجب، القول بان الرواية في الوقت الذي لا تقول فيه شيئا محددا أو حكاية بعينها فأنها في الوقت ذاته تقول الكثير مما هو متناثر في صفحات الرواية بصورة لا يمكن التقاط خيوطها المتشابكة و المتداخلة فهي

تعيد ترتيب التواريخ المجهولة و تقرأ مساحات الألم و الفجيعة التي رسمت ملامح و تضاريس الأرض التي ينحدر منها بركات و التي استوطنها شعبه منذ تاريخ موغل في القدم دون اعتراف من السلطنة العثمانية او الجهورية التركية الحديثة .يسأل الباشا التركي أوزال بكبكيجوك، دلشاد ذات مرة " تقع أخطاء في الترجمة بين حين و آخر ألا توافقني ؟ " فيرد دلشاد " بلى.. وجودكم هنا خطأ في الترجمة ". و ثمة الكثير من الإشارات و الإيحاءات التي تتكأ جراح الكرد الذين لم يعثروا على مدى تاريخهم على أصدقاء سوى الجبال.

و الروائي إذ يستحضر كل هذه المآسي فإنما يستحضرها بقلب من ذاق طعم الخيانة مرارا و بلغة غارقة في صفائها و تعابيرها الجميلة مثل " ..بللته بمرح عينيها " و " ..ضحكت ضحك غمام " و " يغزلون بدخان لفافات التبغ خيوطا لإزار الهواء العاري " ، و "..على وجهه عافية الألم " ، كما يضمن الرواية فقرات و عبارات مقتبسة من الكتاب الذي يعمل دلشاد على ترجمته و هذه تقترب من النصوص الصوفية الغامضة و مكابداتها و تأملاتها ،و لدى سليم بركات قاموسا هائلا يضم أسماء الحيوان و الطيور و النبات و الفاكهة و كلها مستمدة من جغرافية كردستان إذ يوظفها سليم بركات بجدارة قل نظيرها ، انه يحيل الوطن ـ المكان بكل ما يحفل به إلى كلمات هي وحدها القادرة ،في عرف الكاتب ،على أن تجعله بعيدا عن النسيان و عصيا على التلاشي.

نشرت هذه المادة في صحيفة الحياة

E-Pirtûk www.kurdme.com
كوم .تيريز
27/11/2003
www.all-kurd.com
www.kurdefrin.com